التَّدبُّرُ لِلجَمِيْع

منهجٌ عمليٌّ
لِتدبُّرِ القرآنِ الكريم

هشام المشهداني

جميع حقوق الطّبع محفوظة للمؤلِّف
1438هـ / 2017م

إهداء

- إلى رسولِ الله محمّدِ بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي أدّى إلينا القرآنَ الكريمَ كما أنزلهُ عليه الحكيمُ العليم، ولَعَلِّي أنال شفاعتَهُ؛ فأكونَ مِن السُّعَدَاء.

ثمّ:

- إلى أبويّ الكريميْن؛ عسى أنْ يكونَ هذا العملَ في ميزان حسناتهما.
- إلى أساتذتي وإخواني، الذين كنتُ ــ ولا أزال ــ منهم وبهم، ونَهَلْتُ مِن عِلْمِهِم، وتربّيتُ على أيديهم.
- إلى رفيقةِ الدَّرْب، التي أعانتْ وصبرتْ؛ فأثبتتْ أنّها خيرُ مَتاعِ الدّنيا.
- إلى رَياحَيني مِن الدّنيا (عائشة، يوسف، وفاطمة)؛ لعلّهُ يكونَ نِبْراساً لهم، في خدمةِ الإسلام ونُصْرَةِ أهله.

أهميّة الكتاب:

- التّعرُّفُ على معنى التّدبُّر وأهميّتِهِ للمسلم، والتنبيهُ على فَضْلِهِ، وبيانُ وسائلِهِ.
- دعوةُ المسلمين إلى إعادة النّظر ـــ بجِدِّيّةٍ وحَزْم ـــ في تعاملهم مع القرآن الكريم.

أهداف الكتاب:

- بيانُ أنّ التّدبُّرَ متيسِّرٌ لجميع المسلمين، بل لكلِّ مَنْ يقرأ القرآنَ الكريم.
- كشْفُ الأوهام الّتي ترسّختْ في أذهان المسلمين عن التّدبُّر، وإزالتُها من عقولِهم.
- الانتقالُ بالقارئِ من مرحلة (التّعليم النّظريِّ) إلى مرحلة (الممارسة العمليّة) للتّدبُّر.
- تقوية العلاقة بين المسلمِ وكتابِ الله تعالى؛ لتحقيقِ الهدفِ المنشود: أنْ يكونَ خُلُقُ المسلم القرآنَ!

المحتويات:

المادّة	الصّفحة
المقدّمة	8
الفصل الأول: قبل الانطلاق	11
المبحث الأول: معنى التّدبُّر	13
المبحث الثاني: آيات التّدبُّر في القرآن الكريم	16
المبحث الثالث: أهميّة تدبُّر القرآن الكريم	24
أولاً: التّدبُّر هو الغاية العظمى من نزول القرآن الكريم	24
ثانياً: التّحقُّق بصفة الخيريّة في الأمّة	25
ثالثاً: التّلذُّذ بالقرآن الكريم	27
رابعاً: الحصول على بركة القرآن الكريم	27
خامساً: حاجة القلب إلى التّدبُّر	28
المبحث الرابع: تدبَّرْ، لا تُفسِّرْ!	32
الفصل الثاني: شروطٌ تدفع، وعوائقُ تمنع، وبينهما شُبُهات!	36
المبحث الأول: شروط التّدبُّر	38
المبحث الثاني: عوائق في طريق التّدبُّر	43
أولاً: المعاصي والذّنوب	43
ثانياً: الانصراف عن القرآن الكريم إلى غيره من العلوم	46
ثالثاً: اشتغال القلب بمخارج الحروف	46
رابعاً: الزِّيادة عن الحدِّ في الطّعام	47
خامساً: كثرة النّوم أو قلّته	47
المبحث الثالث: شبهات عن التّدبُّر	50
أولاً: شبهات عن القرآن الكريم نفسه	50
ثانياً: الخوف من القول على الله تعالى بلا عِلْم	51
ثالثاً: الخلط بين التّدبُّر والتّفسير	51
رابعاً: اشتراط أنْ يكونَ المُتدبِّر ضليعاً في اللّغة العربيّة	52
خامساً: أجْر حِفْظ القرآن الكريم أكبرُ مِن أجْر تدبُّره	53
الفصل الثالث: هيّا نتدبَّر!	58

المبحث الأول: حقيبة التّدبُّر	60
المبحث الثاني: مفاتيح التّدبُّر	67
المفتاح الأول: ما بين دفّتيْ المصحف هو كلام الله تعالى	68
المفتاح الثاني: إقرأ القرآنَ كأنه أُنزل عليك أنت!	71
المفتاح الثالث: استعذْ، وسَمِّ!	73
المبحث الثالث: آليّات االتّدبُّر	76
أولاً: الورْد اليوميّ	77
ثانياً: أحسِنْ الوقْفَ والابتداء؛ تُحسنْ التّدبُّر!	79
ثالثاً: الاستعانة بعلامات التّرقيم	82
رابعاً: الإحسان في تلقِّي آيات القرآن	87
خامساً: تدبَّرْ بين يدَيْ الكريم!	92
سادساً: إقرأ القرآنَ كما قرأهُ الصّحابة!	96
سابعاً: التّدبُّر الموضوعيّ	102
ثامناً: التّدبُّر الحاسوبيّ!	107
تاسعاً: تدبَّرْ على الوسادة!	114
عاشراً: التّدبُّر الجماعيّ	118
همسة أخيرة: أحكِمْ صيدَك التّدبُّريّ!	120
خاتمة	122
المصادر	123

المقدّمة:

إنّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُه، ونعوذ بالله مِن شرور أنفسِنا ومِن سيِّئاتِ أعمالنا، مَن يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أنْ لا إله إلاّ الله، وحدَهُ لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبدُهُ ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ آل عمران: ١٠٢ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ النساء: ١ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ الأحزاب: ٧٠ – ٧١ .

أمّا بعدُ:

فلطالَما سمعتُ العبارةَ الّتي تقول: " **أمّة إقرأ: لا تقرأ** "، وهي عبارةٌ صحيحة، مُفادُها أنّنا صرنا أمّةً لا تقرأ، على الرّغمِ من أنّ أوّل كلمةٍ أُنزلتْ على رسولِنا صلى الله عليه وسلم كانتْ (إقرأ).

ولكنّي ــ في المقابل ــ لم أسمعْ العبارة التي تقول: " **أمّة إقرأ: لا تقرأ كتابَ إقرأ** "!

وبالتّأكيد فإنّ ما أعنيهِ بـــ (القراءة) هنا هو القراءةُ المُنْتِجة، الّتي تُثمرُ التّغييرَ الإيجابيَّ في نَفْسِ القارئ، وليس مجرّدَ تحريكِ الشِّفاه بكلماتٍ لا يتجاوز صداها الحناجر! وعلى هذا المعنى؛ فإنّه مِن بينِ كلِّ ألفٍ ــ مثلاً ــ يقرؤون القرآنَ الكريم لا تكادُ تجدُ منهم واحداً يقرأ!

فما هو السببُ في أنْ صارتْ علاقةُ المسلم بكتاب الله تعالى لا تتعدّى توالِيَ الختمات؟!

وهل هذه هي الغايةُ مِن نزول القرآن الكريم؟!

أليس صحيحاً أنّ الاقتصارَ على قراءةِ كتابِ الله تعالى دون فَهْمٍ وتدبُّرٍ هو من الأمور الّتي عابَها القرآنُ الكريم على بني إسرائيل؟! قالُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ البقرة: ٧٨، أي: (لا يعلمونَ الكتابَ إلاّ تلاوةً)، كما قال أهل التّفسير.

أليس صحيحاً أنّ أحدَنا قد يتفاعلُ مع بيتٍ قالهُ شاعرٌ ما، ويتأثّرُ به، في حينِ أنّ ذلك لا يحصل حين يسمع كلامَ الله تعالى؟!

أليس صحيحاً أنّنا حين نقرأ قصصَ الأوّلينَ، وكيف كان الواحدُ منهم يتغيّرُ حالُهُ حين يسمعُ آيةً واحدةً من القرآن؛ نتعجّبُ مِن ذلك ولا نفهمُ سببَهُ، مع أنّنا قرأنا الآيةَ نفسَها مئاتِ المرّات، وربّما نحفظها عن ظهر قلب؟!

ثمّ، ما هو السِّرُّ في الثّورة الدّاخلية الّتي اعتملتْ في نفوس سلفنا الصّالح، تلك الثّورةُ الّتي غيّرتْ وجْهَ الأرضِ ومسارَ التأريخِ إلى يومنا هذا ؟!

إنّه: **تدبُّرُ القرآن الكريم**.

وهو الأمر الذي فَطِن له أفذاذٌ من العلماء والأساتذةِ الأجِلاّء، قديماً وحديثاً؛ فانبَرَوْا يُنبِّهون الأمّة ويدعونها إلى أخْذِ كتابِ ربِّها بقوّةٍ.

وقد شهدتْ السّنواتُ الأخيرة كتباً عديدةً اختصّتْ بهذا الشّأن، جزى الله تعالى خيراً كلَّ مِن ساهم فيها وبذل فيها جُهْداً، ولكنّ المُلاحَظَ على هذه الكتب: كثرةُ تركيزِها على المباحث النّظريّة للتّدبُّر، وقلّةُ اهتمامِها بالجانب العمليِّ منه، وكأنّ ذلك امتدادٌ للأسلوبِ العقيم الّذي تتّبعُهُ مؤسّساتُ التّعليم في بلداننا!، الأسلوبِ الّذي يَفْصِلُ بين النّظريّات والتّطبيق.

وهذا الكتاب محاولةٌ لسَدِّ الخَلل، وتلافي النّقْص، وتقديمِ موضوع التّدبُّر بلغةٍ معاصرة، هي لغةُ التّدريبِ والممارسة، لا لغةُ التّلقينِ والمدارسة! ولذلك؛ حرصتُ على التّركيز على الجانب

العمليِّ التّطبيقيِّ من التّدبُّر، حتّى في المباحث النّظريّة منه؛ ليقدِّمَ الكتابُ منهجاً تدريبيّاً يسير عليه القارئ، خطوةً بخطوة.

وقد جاء الكتاب في ثلاثة فصول، تناولتُ في الفصلِ الأوّل منها التّدبُّر: مِن حيثُ معناهُ اللّغويُّ والتّطبيقيُّ، والآياتُ الّتي تناولتْ التّدبُّرَ، وأهميّتُهُ، والفرقُ بينه وبين التّفسير.

أمّا الفصل الثّاني فتكلّمتُ فيه عن شروط التّدبُّر، والعوائقِ الّتي تُعيقُ المتدبِّرَ عنه، والشّبهات الّتي تحوم حولّ التّدبُّرِ وتمنعُ النّاسَ منه.

وعلى الرّغم مِن أنّ هذيْنِ الفصليْنِ قد تناولا الجانبَ النّظريَّ من التّدبُّر، إلاّ أنّهما احتويا على تطبيقاتٍ عمليّةٍ مهمّة؛ لكي يُشْفَعَ النّظَرُ بالتّطبيق.

ثمّ جاء الفصل الثّالث، وهو الأهمّ من بين فصول الكتاب، والّذي تناولتُ فيه الجانبَ العمليَّ من التّدبُّر، وشرحتُ أساليبَهُ العمليّةَ ومناهجَهُ، وبيّنتُها بشيءٍ من التّفصيل، لذلك؛ حَفَلَ بممارساتٍ تدريبيّةٍ عدّة، ضمنَ منهجٍ مرسومٍ بَدَقّةٍ وعناية.

وأخيراً: أسألُ الله تعالى أنْ يضعَ القبولَ في هذا العمل، وأنْ يغفرَ لي الخطأَ والزّلَل، وأنْ ينفعَ به، ويجعلَهُ في ميزان حسناتي؛ إنّه وليُّ ذلك، والأهلُ لكلِّ خير.

هشام المشهداني

28 رمضان 1438هـ

2017/6/23م

الفصل الأول:

قبلَ الانطلاق ...

إنّ الهدف الأساسَ من هذا الكتاب هو تعليمُ تدبّر القرآن الكريم والتّدريبُ عليه، وليس الاكتفاءَ بسَرْدِ المباحث النّظريّة المتعلِّقة بهذا الشّأن، والإسهابِ في ذِكْرِ تفاصيلِها وتفريعاتِها، ولكنْ! لا بدّ ـــ على الرّغم من ذلك ـــ مِن التّعريف ببعضٍ مِن هذه المباحث النّظرية؛ لكي يكونَ القارئُ مُتسلِّحاً بالمعرفة الضّروريّة له قبل أنْ يبدأَ في تطبيقِ المراحل العمليّةِ للتّدبّر؛ كمَنْ يريد تعلّمَ قيادةِ السَّـــيّارة؛ فإنّه لا مناصَ له عن تعلّمِ الأمورِ النّظريّة الخاصّة بالقيادة، قبل أنْ يكونَ قادراً على قيادتها بشكلٍ عمليّ.

من أجل ذلك؛ كان هذا الفصل.

المبحث الأول:

معنى التّدبُّر

التَّدَبُّر: التَّفَكُّرُ في الشّيء[1].

وبتعبيرٍ أدقَّ، هو "عبارةٌ عن النَّظَر في عواقب الأمور، وهو قريبٌ من التَّفَكُّر، إلا أنّ التّفكّرَ: تَصرُّفُ القلب بالنَّظَر في الدّليل، والتّدبُّر: تصَرُّفُهُ بالنَّظَر في العواقب"[2].

وأيضاً فإنّ "تدبُّر الكلام: أنْ ينظرَ في أوّلِهِ وآخرِهِ، ثمّ يُعيدُ نَظَرَهُ مرّةً بعدَ مرّة؛ ولهذا جاء على بناءِ التّفعُّل، كالتّجرُّع والتّفهُّم والتّبَيُّن"[3].

وهذا عن معنى التّدبّر بشكلٍ عامّ.

أمّا تدبّرُ القرآن الكريم: فإنّه لا يُراد به مجرّدُ تلاوةِ اللّفْظ فحسْب، وإنّما التّدبُّرُ يتعدّى ذلك إلى فَهْمِ آياتِ القرآن وكلماتِهِ، والتفكّر في معانيها ومراميها، وما ينتج عن ذلك من نتائجَ عمليّةٍ تظهر في تصرّفاتِ الشّخص المتدبِّر وتفكيره؛ فإنّ "تدبُّر الآيات: التّفكّرُ فيها ، والتّأمّلُ الذي يؤدي إلى معرفة ما يَدْبُرُ ظاهرَها من التّأويلات الصّحيحة والمعاني الحسنة؛ لأنّ مَن اقتنع بظاهر المتلوِّ لم يَحُلْ[4] منه بكثير طائل، وكان مَثَلُهُ كَمَثَلِ مَن لهُ لِقْحَةٌ[5] دَرُورٌ[6] لا يحلبُها، ومُهْرَةٌ نَتُورٌ[7] لا يَسْتولدها"[8].

فالتّدبّرُ عمليّةٌ تؤتي أُكُلَها نوراً في القلب، وهدايةً في السّلوك؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ الشورى: ٥٢، "ومَن امتلأ فِكْرُهُ بتدبُّرِ

---

[1] أنظر: لسان العرب/ ابن منظور، مادّة (دبر)، 273/4.
[2] معجم التّعريفات/ الجرجانيّ، ص49. وأنظر: الفروق اللغويّة/ أبو هلال العسكري، ص75.
[3] مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة/ ابن القيّم الجوزيّة، ص525.
[4] حالَ من المكان، يحول منه: إذا تركه إلى غيره، أنظر: لسان العرب، مادّة (حول)، 182/11 وما بعدها.
[5] لِقْحَة ولَقْحَة: النّاقة اللّبون الغزيرة اللّبَن: المصدر السّابق، مادّة (لقح)، 581/2.
[6] ناقةٌ دَرور: كثيرةُ دَرّ اللّبَن: المصدر نفسه، مادّة (درر)، 280/4.
[7] النَّتُور: الكثيرُ الولَد: لسان العرب، مادّة (نثر)، 191/5.
[8] تفسير الكشّاف/ الزمخشريّ، ص925.

القرآن، وأصبح هَمُّهُ فهْمَ المعاني؛ فسيجد نفسَهُ ـــ تلقائيّاً ـــ يبحث عن التّطبيقاتِ الخارجيّةِ الحيّة لمواضيع القرآن، ويسعى لجعلِها مؤثِّرةً في حياتِهِ وسلوكِه"[9].

ونلاحظ أنّ كلمة (**تَدَبُّر**) هي على وزنِ (**تَفَعُّل**)، وهو وزنٌ يُفيد (التّكلُّف) و (التّدرُّج)، أي أنّ "المراد منه حصولُ الفعل مرّةً بعدَ مرّةٍ، ومرحلةً بعدَ مرحلةٍ، فالأوّل[10] يُشعر بضرورة بَذْل الجُهْد، والثّاني[11] يُبيِّنُ ضرورةَ التّدرُّج والتّتبُّع مرحلةً مرحلة؛ لِسَبْرِ أغوارِ أسرارِ القرآن"[12].

وبعدُ، "فليس شيءٌ أنفعُ للعبد في مَعاشِهِ ومَعادِهِ، وأقربُ إلى نجاتِه: مِن تدبّرِ القرآن، وإطالةِ التّأمّل، وجمْعِ الفِكْرِ على معاني آياتِه؛ فإنّها تُطْلِعُ العبدَ على معالم الخير والشّرِّ بحذافيرِها، وعلى طرقاتِهما وأسبابِهما وغاياتِهما وثمراتِهما ومآلِ أهلهما"... "فلا تزالُ معانيهِ تنهض بالعبد إلى ربِّهِ بالوعد الجميل، وتُحذِّرُهُ وتُخَوِّفهُ بوعيدِهِ من العذاب الوبيل، وتحُثُّهُ على التَّضمُّرِ والتّخفّفِ للقاء اليوم الثّقيل"... "وتناديهِ كلّما فَتَرَتْ عزَماتُهُ، و وَنَى[13] سَيْرُهُ: تقدَّمَ الرَّكْبُ وفاتَكَ الدّليلُ؛ فاللِّحاقَ اللِّحاقَ، والرّحيلَ الرّحيلَ"[14].

---

[9] تعليم تدبّر القرآن الكريم/ د.هاشم بن علي الأهدل، ص15.
[10] أي: التّكلُّف.
[11] أي: التّدرُّج.
[12] مفهوم التّدبُّر، تحرير وتأصيل/ مركز (تدبّر) للاستشارات التّربويّة والتّعليميّة، ص36.
[13] ونى سيرُهُ: ضَعُفَ، أنظر: لسان العرب 415/15.
[14] مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين/ ابن القيم الجوزيّة، 485/1 و 487/1، بتصرّفٍ يسير.

التّطبيق العمليّ

- ما الذي كانتْ تعنيهِ لك عبارةُ (تدبُّر القرآن الكريم) سابقاً ؟! ... وهل مارستَ هذه العمليّةَ من قبلُ، أو ــ في الأقلِّ ــ حاولتَ ذلك؟!
- اعزِمْ على تغييرِ طريقةِ تعامُلِك مع القرآن الكريم وقراءتِك له، وأنْ يكونَ تدبُّرُهُ هو هدفَ المرحلةِ المقبلةِ من تعامُلِكَ معه[15].

[15] ولعلّك تجد في هذا الكتاب ما يُعينك على ذلك.

المبحث الثاني:

التّدبُّر في القرآن الكريم

إذا أردتَ أنْ تعرفَ كيف تناول القرآنُ الكريم موضوعاً ما؛ فقمْ بجمْعِ آياتِ القرآن التي تناولتْ هذا الموضوع؛ وبذلك ستخرج بصورةٍ كاملة عنه!

وهذا يعني أنّه علينا ــ إذا أردنا تطبيقَ هذا الكلام على التّدبُّر ــ أنْ نجمعَ آياتِ التّدبّر في القرآن الكريم.

فما هي الآياتُ القرآنيّة التي تناولتْ موضوعَ التّدبّر؟! .. و كيف تناولتْهُ؟! .. وهل هي موجّهةٌ للمؤمنين فقط؟!

فنقول ــ وبالله التّوفيق ــ:

ذُكِرَ تدبّرُ القرآن الكريم في محكم التنزيل في أربعة مواضع[16]، اثنانِ منهما مكيّان، والاثنانِ الآخران مدنيّان.

وفيما يلي تفصيلُ هذه المواضع وبيانُها، بحسب ورودها حسب ترتيب المصحف الشّريف:

أوّلاً: قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ النساء: ٨٢.

الخطاب في هذه الآية موجّهٌ للمنافقين؛ لأنّ الله تعالى قال في الآية التي قبلَها مباشرةً: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ النساء: ٨١، و سورةُ النّساء سورةٌ مدنيّة؛ ومن المعلوم أنّ المجتمع المدنيّ كان يتخلّلهُ وجودٌ للمنافقين .

[16] وردت مادّة (د ب ر) ومشتقّاتها في القرآن الكريم أكثر من ذلك، ولكنّ كلامنا هنا ينصبّ على ما اختصّ منها بتدبّر القرآن الكريم دون غيره.

والسّؤال في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؟! سؤالٌ إنكاريّ، أي أنّ الله تعالى يُنكر على المنافقين أنّهم لا يتدبّرون القرآن، مع قدرتِهم عليه، وانتفاءِ ما يمنعهم منه.

ودلَّتْ الآية بالنّصِّ على أنّ مَنْ يتدبّر القرآنَ الكريم ــ قاصداً بذلك البحثَ عن الحقِّ ــ فإنّه سيصل إلى نتيجةٍ مُفادُها عدمُ وجود أيِّ اختلاف بين آياتِهِ؛ وبالتّالي فلا يمكن إلا أنْ يكونَ هذا القرآنُ من عند الله تعالى.

وهذه النتيجة سيصل لها المتدبّر أيّاً كانت درجةُ إيمانِهِ، ولو كان منافقاً، بل إنّ الخطابَ متوجِّهٌ إليه أصلاً!

ومن جهة أخرى: دلّتْ الآية ــ بمفهوم المخالفة ــ أنّ المؤمنين مأمورونَ بتدبُّرِ القرآن الكريم؛ لأنّ المؤمنين مأمورونَ باجتناب صفات المنافقين عامّةً، ومن هذه الصفات ما ذكرتْهُ الآيةُ هنا: أنّهم لا يتدبّرون القرآن.

وقد تقول: ولكنّي مسلمٌ والحمد لله تعالى، وجميع المسلمين يؤمنون بأنّ القرآنَ الكريم كلامُ الله تعالى ــ بل لا يكون المسلمُ مسلماً إلاّ بذلك ــ، فَهل أحتاجُ أنْ أتدبّرَ القرآنَ الكريم لأصلَ إلى نتيجةٍ أنا مؤمنٌ بها سَلَفاً؟!

فأقول لك: فَرْقٌ بينَ (**الإيمانِ بتلقين**) و (**الإيمان بيقين**)! ... ألَمْ ترَ إلى إبراهيمَ عليه السّلام ــ وهو خليلُ الرّحمن ــ كيف أنّه طلب اطمئنانَ القلبِ بالرّؤية؟! قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ البقرة: ٢٦٠ .

وهذا الفَرْقُ بين الإيمانَيْنِ هو نفسُهُ السببُ في اختلافِ حالِنا اليومَ عمّا كان عليه المسلمون في عصور الإسلامِ الأولى، مع أنّنا جميعاً نؤمنُ بكلمات القرآن كما كان سلفُنا الصّالح يؤمنون!

والملاحَظ هنا ــ والكلام عن الآية مِن سورة النِّساء ــ أنّ المُتَدبَّر (بفتح الباء و تشديدها) هو القرآنُ الكريم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، و (**القرآن**) اسمٌ للتنزيل العزيز مأخوذٌ من القراءة؛ "لأنّ المخاطَبين بالتّدبُّر هنا ــ كما مرَّ ــ هم المنافقون، وهؤلاء كانوا يقرؤون القرآن في حضرة المسلمين، ويُردِّدون آياتِهِ على ألسنتِهم دون تدبُّر، بل كانوا يُتَمْتِمُونَ بها مَكْراً ودهاءً؛ فجاءتْ تلك اللّفظةُ تعكسُ حالَهُم، وتحكي صنيعَهم الظّاهر.

ويجوز أنْ يكونَ اختيارُ تلك اللّفظةِ راجعاً أيضاً إلى أنّ هؤلاء المنافقينَ كانوا لا يكتبونهُ البتّة، ولا يحفظونهُ في صدورهم مطلقاً، وهذا يُؤيِّدُهُ السِّياقُ الخارجيّ؛ فلم يُعرَفْ أنّ منافقاً عليمَ النِّفاق كَلَّفَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن"[17].

ثانياً: قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ المؤمنون: ٦٨.

هنا نجد الخطاب مختلفاً عمّا كان عليه في سورة النِّساء؛ لأنّ سورة المؤمنون[18] سورةٌ مكيّة، والخطابُ في هذه الآية متوجِّهٌ إلى كفّار مكّة، وقد قال الله تعالى قبلَها:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ المؤمنون: ٦٦ – ٦٧؛ لأنّ كفّارَ مكّة كانوا يتسامرون ليلاً بِهَجْرِ القرآن، أي: بالحديث عنه بالباطل من الكلام؛ مِن قبيل وَصْفِهِ بأنّه شِعرٌ أو سِحْرٌ أو كهانة، وغيرِ ذلك من الاتِّهامات الباطلة التي كانوا يحاولون ــ بواسطتها ــ صَدَّ النّاس عن سماعِ القرآن الكريم[19].

والسّؤال في قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ)؟! سؤالٌ إنكاريٌّ أيضاً كالذي مرّ بنا في سورة النِّساء، ولكنّ الملاحَظ هنا أنّ المُتَدبَّر هو (**القول**) وليس (**القرآن**) كما لاحظنا عند الخطاب

---

[17] التّدبّر، حقيقته وعلاقته بمصطلحات التّأويل والاستنباط والفهم والتّفسير/ د. عبد الله عبد الغني سرحان، ص18.
[18] لفظة (المؤمنون) هنا مرفوعة من باب الحكاية كما يقول أهل اللّغة؛ لأنّ حقّها الجرّ؛ فهي تُعرب مضافاً إليه.
[19] أنظر: تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير، 420/5.

مع المنافقين؛ وذلك "للإشارة إلى أنّ كفّارَ قريشٍ كانوا يسمعونه مقولاً من النّبيِّ صلى الله عليه وسلم والصّحابة، و لم يكونوا يقرؤونَهُ قراءةً، أو يكتبونَهُ كتابةً"[20].

وربّما يكون الإتيانُ بلفظ (**القول**) له سببٌ آخر، وهو: أنّ الكفّار لّما اتّهموا القرآنَ الكريم بأنّه شِعرٌ أو سِحْرٌ أو كهانة، أنكر اللهُ تعالى عليهم أنّهم لم يدّبّروا هذا (**القول**)؛ فإنّهم إذْ لم يستطيعوا الإتيانَ بِمِثْلِهِ وعجزوا عن ذلك ــ مع زَعْمِهِم بأنّه قولٌ مِن الأقوال التي يستطيع أنْ يأتيَ بمثلها البشر ــ فلم يبقَ إلا أنْ يتدبّروا هذا القول، ولكنّهم لم يفعلوا، فأنكرَ اللهُ تعالى عليهم ذلك؛ لأنّهم لو فعلوا وتدبّروا هذا (**القول**) لَعَلِموا أنّه ليس مِن كلامِ البشر، بل هو كلامُ ربِّ البشر.

ثالثاً: قولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ ص: ٢٩.

ويختلف الخطابُ مرّة ثالثة، ليأتيَ في هذه الآية المكيّة متوجّهاً إلى المؤمنين، و لِينُصَّ على أنّ الغايةَ من إنزال القرآن الكريم على محمّدٍ صلى الله عليه وسلم هي: لِيَتدبَّرَهُ المؤمنون، ولينتفعَ بالذِّكرى منه أصحابُ العقول منهم.

ونلاحظ أنّ المتدبَّرَ في هذه الآية هو (**الكتاب**)، وهو اسمٌ للتنـــزيل العزيز مأخوذٌ من الكتابة، "ولفظُ (الكتاب) يتضمّن مِن كونِهِ مكتوباً مضموماً ما لا يتضمنّهُ لفظُ (القرآن) مِن كونِهِ مقروءاً مُظْهَراً بادياً"[21]؛ "للإشارة إلى أنّ المؤمنين ــ الموجّهَ لهم الخطابُ في تلك الآية ــ هم المعنيّون وحدَهُم بكتابتِهِ؛ ليظلَّ محفوظاً أبدَ الدّهر، فلفظة (الكتاب) تُبَيِّنُ عن جمعِهِ في صدورِهِم وضَمِّهِ لآياتِهِ في رقاعِهِم"[22].

ومن العجيب ــ ونحن نتكلّم عن الفرق بين لفظَتَيْ القرآن والكتاب ــ أنّ الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ البقرة: ٢، في حين أنّه تعالى قال: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ البقرة: ١٨٥؛ فنجد أنّ الكلام لّما كان عن

---

[20] التّدبّر، حقيقته: ص43.
[21] شرح مقدّمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيميّة: الشيخ محمّد بن صالح العثيمين، ص61.
[22] التّدبّر، حقيقته: ص53.

المتّقين ــ وهم من المؤمنين قطعاً، بل مِن خيارِهم ــ استخدم كلمة (**الكتاب**)، في حين أنّ الكلام لّما كان عن النّاس عامّةً ــ مؤمنِهم وكافرِهِم ــ استخدم كلمة (**القرآن**)!
فانظرْ ــ يا رعاك الله ــ إلى دقّةِ استعمال الكلمة في القرآن الكريم، و وَضْعِ كلِّ لفظةٍ في مكانها الذي لا تغني عنها فيه كلمةٌ سواها.

بقي أنْ أقولَ: إنّ الكتابَ العزيز وُصِفَ في آية سورة ص بأنّه (مُبَٰرَكٌ)، ومعنى هذه الكلمة "ما يأتي مِن قِبَلِهِ الخيرُ الكثير"[23]؛ فإذا أردتَ ــ أيّها المسلم ــ أنْ تنالَ هذا الخير؛ فعليك بتدبُّرِ القرآن: (مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ)!

رابعاً: قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد: ٢٤.

ويأتي الموضعُ الرّابع ليضيفَ بُعداً جديداً في عمليّة تدبّرِ القرآن الكريم، والخطابُ في هذه الآيةِ المدنيّة متوجّهٌ إلى المنافقين ــ كما هو واضحٌ من سِّياق السّورة ــ على النّحو الذي مرَّ بنا في آيةِ سورة النِّساء، بل إنّ صَدْرَ الآيتيْن متطابقٌ تماماً (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ)، ولكنّ الاختلاف في العَجُز ؛ فقد نصَّتْ الآية هنا على أنّ المانعَ مِن تدبّرِ القرآن هو (إقفالُ القلوب).

وهذا هو البُعْدُ الجديد الذي أشرتُ إليه قبل قليل؛ فإنّ القلوبَ المكبَّلةَ بقيودِ الشّهوات وأغلالِ الشّبهات بعيدةٌ عن تدبّرِ القرآن الكريم وفَهْمِه، "وكأنّ القلبَ بمنزلة الباب المرتجِّ، الّذي قد ضُرب عليه قفلٌ، فإنّه ما لم يُفتحْ القفلُ لا يمكن فَتْحُ الباب والوصولُ إلى ما وراءه؛ وكذلك ما لم يُرفَعْ الخَتْمُ والقفلُ عن القلب: لم يدخل الإيمانُ ولا القرآن" [24].

وقد تقول: وأيُّنا الذي يملك قلباً خالياً من المعاصي والشّهوات ــ و ربّما بعض الشّبهات ــ؟! .. ألا يعني ذلك أنّ التدبّرَ محصورٌ بأهل التّقوى، مختصٌّ بهم دونَ سواهم؟!!

---

[23] لسان العرب: 396/10.
[24] التّفسير القيّم/ ابن قيّم الجوزيّة ، ص439.

فأقول: لا شكّ أنّه كلّما زادتْ تقوى المؤمنِ وطهارةُ قلبِهِ؛ زادَ استعدادُهُ لِتدبّرِ القرآن الكريم وتلقّي معانيه وفَهمِ مُراداتِه، ولكنّ هذا ـــ في الوقتِ نفسِهِ ـــ لا ينفي حصولَ التدبّرِ ممّن خالط قلبَهُ بعضُ الشّهوات أو الشّبهات، أو كلاهما؛ لأنّ القلبَ الممنوعَ من التدبّر هو الذي عليه أقفالٌ متعدِّدة، لا قفلٌ واحد ـــ كما نصَّتْ الآية ـــ، وذلك كنايةٌ عن تمادي ذلك القلبِ في المعاصي والشّهوات؛ حتّى يصيرَ مُقفلاً بأقفالٍ كثيرة.

وممّا يؤكِّد هذا أنّ الله تعالى خاطَبَ الكافرينَ والمنافقينَ وطالَبَهُم بتدبّرِ القرآن الكريم، وهذا يعني أنّهم قادرونَ عليه، مستطيعونَ له، وإلا لما طالَبَهم به، ويعني أيضاً أنّ الكافرينَ والمنافقينَ إذا تدبّروا القرآنَ ـــ ابتغاءَ البحثِ عن الحقِّ ـــ فإنّ ذلك كافٍ في نفْيِ الإقفالِ عن قلوبهم! وإذا صحَّ وقوعُ التدبّرِ من الكافرين والمنافقين؛ فإنّ وقوعَهُ مِن عُصاةِ المؤمنينَ أولى وألْزَم.

ويُلاحَظ أنّ المُتَدَبَّرَ هنا هو (**القرآن**)؛ لأنّ الكلامَ متوجِّهٌ إلى المنافقين، كما سبق بيانُهُ عندَ الكلام على آية النِّساء.

والمُلاحَظُ في الآياتِ الأربعِ كلِّها أنّ صيغة التّدبُّر جاءتْ بالفعل المضارع، الّذي "يدلّ على التّجدُّد والحدوث، أو ما يُمكنُ التّعبيرُ عنه بالاستمرارِ التّجدُّديِّ " .. " وهذا الأمر يتناسب مع قضيّة التّدبُّر، الّتي لا يُتصوّرُ فيها أنّ الإنسانَ سيكون مُتدبِّراً كلَّ وقتِهِ، لكنْ ينبغي أنْ يتحرَّكَ عنده هذا الهاجس كلّما طرقَ سَمْعَهُ القرآنُ، أو تحرّكَ به لسانُهُ، أو قرأتْهُ عيناهُ، وهذا يعني أنّ التّدبُّرَ حَدَثٌ مُتجدِّدٌ مع أسبابِهِ ودواعيه"[25].

"ألا ترونَ ـــ رحمكم الله ـــ إلى مولاكم الكريم، كيف يحثُّ خَلْقَهُ على أنْ يتدبّروا كلامَه؟! و مَن تدبّرَ كلامَهُ عرف الرّبَّ عزّ وجلّ، وعرف عظيمَ سلطانِه وقدرتِه، وعرف عظيمَ تفضُّلِهِ على المؤمنين، وعرف ما عليه من فَرْضِ عبادتِه؛ فألزمَ نفسَه الواجبَ، فحذِرَ ممّا حذّرَهُ مولاه الكريم، ورغب فيما رغّبهُ فيه، ومَن كانت هذه صفتَهُ عند تلاوتِهِ للقرآن وعند استماعِهِ من غيره: كان القرآنُ له شفاءً؛ فاستغنى بلا مال، وعَزَّ بلا عشيرة، وأنِسَ بما

[25] مفهوم التّدبّر، ص33 – 34.

يَستوحِشُ منه غيرُهُ، وكان هَمُّهُ عند تلاوة السّورة إذا افْتَتَحها: **متى أتّعظ بما أتلوه؟!** ولم يكنْ مرادُهُ: **متى أختم السّورة؟!**"[26].

ويمكنُ لأيٍّ منّا أنْ يعرفَ نوعَ قراءتِهِ للقرآن الكريم باستخدام اختبارٍ فرديٍّ بسيط؛ يَدُلّنا عليه ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى، إذ يقول: "إذا أردتَ فَهْمَ هذا القَدْرِ كما ينبغي: فانظرْ وقتَ أخْذِكَ في القراءة إذا أعرضْتَ عن (واجبِها وتَدَبُّرِها وتَعَقُّلِها، وفهْمِ ما أُريدَ بكلِّ آية، وحظِّك من الخطاب بها، وتَنْزيلِها على أدْواءِ قلبك والتقيُّدِ بها): كيف تدرك الختمةَ ـــ أو أكثرَها، أو ما قرأتَ منها ـــ بسهولةٍ وخِفّة! مُسْتكْثِرَاً من القراءة.

فإذا ألزمتَ نفسَك التّدبّرَ ومعرفةَ المُراد، والنّظَرَ إلى ما يخصُّكَ منه والتّعبّدَ به، وتَنْزيلَ دوائِهِ على أدواءِ قلبِك، والاستشفاءَ به؛ **لم تَكَدْ تجوزُ**[27] **السّورةَ أو الآيةَ إلى غيرها**"[28].

---

[26] أخلاق أهل القرآن/ الآجريّ، ص36.
[27] أي: تعبر منها وتجتازها.
[28] مدارج السّالكين، ص139.

التّطبيق العمليّ

- لعلّك ــ وأنت تقرأ آياتِ التّدبّر الأربعَ ــ لم تنتبهْ إلى أنّ ما قرأتَهُ في هذا المبحث هو نتيجةٌ لِتدبُّرِ الآياتِ المذكورة! ... فهل تستطيع أنْ تضيفَ شيئاً ــ مِن تدبُّرِك أنت ــ لهذه الآيات؟!! .. حاولْ ذلك.
- انطلاقاً مِن الاختبار الذي وضعهُ ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى: جرِّبْ قراءةَ آيةٍ أو آيتيْنِ ــ لا أكثرَ ــ من القرآن الكريم: إقرأهما بِتَرَوٍّ، مع محاولة التّدبُّرِ واستنباط الفوائد والدّروس، ولا بأسَ في أنْ تُطبِّقَ ذلك على آيات التّدبُّر التي ذكرتُها لك آنفاً، كلَّ واحدةٍ منها على حِدة، مستفيداً ممّا عَلِمْتَهُ عنها... وبعد أنْ تفعلَ ذلك؛ أجبْ عن هذا السّؤال:

هل وجدتَ ــ بِنَفْسِكَ ــ الفرقَ بين قراءتِك للقرآن بالتّدبُّر و قراءتِك السّريعة التي اعتدتَها فيما سبقَ؟!

مالذي يَعنيهِ لك ذلك؟!

وماذا ستفعلُ بإزائِهِ؟!!

المبحث الثالث:

أهميّةُ تدبُّرِ القرآن الكريم

على الرّغم من أنّ أهميّة تدبّرِ القرآن الكريم ظهرتْ واضحةً في المبحث السّابق، الذي استعرض بشكلٍ سريع الآياتِ القرآنيّةَ التي ذكرتْ التدبّرَ وحثّتْ عليه، إلا أنّه لا بدّ مِن إفراد هذه الأهميّة في بحثٍ مستقلّ؛ لِيَتّضحَ ــ بشكل جليّ ــ دَوْرُ تدبّر القرآنِ الكريم في حياة المسلم، هذا الدّوْرُ الذي نراه ــ للأسف ــ مفقوداً في الأمّة الإسلاميّة في أيّامنا هذه، ما خلا أفراداً هنا وهناك.

فتتجلّى أهميّة التدبّر في ما يلي[29]:

أولاً: التدبّر هو الغايةُ العُظمى مِن نزول القرآن الكريم:

وهذا لأنّ "القرآن الكريم نَزَلَ لأمورٍ ثلاثة: التّعبُّدِ بتلاوتِه، وفَهْمِ معانيه، والعملِ به"[30]، ويُلاحظُ أنّ التّدبّرَ يدور حولَ الأمريْنِ الثّاني والثّالث؛ وبذلك تتّضح أهميّتُهُ، في حينِ أنّ معظمَ المسلمين اكتفوا بالأمر الأوّل فقط، وهو التّعبدُ بتلاوة القرآن الكريم، وجعلوا منه المَظْهَرَ الوحيدَ لعلاقة المسلم بالقرآن!

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ ص: ٢٩؛ فمتدبّرُ القرآن ــ قبلَ أيِّ شيءٍ آخَر ــ ملتزمٌ بأمرِ الله تعالى، والمُعْرِضُ عنه مُتخلِّفٌ عن أداء واجبٍ مأمورٍ به، قال القرطبيّ رحمه الله تعالى عندَ تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الحشر: ٢١: "حَثَّ على تأمُّلِ مواعظِ القرآن، وبيّنَ أنّه لا عُذْرَ في ترْكِ التّدبّر؛ فإنّه لو خُوطِبَ بهذا القرآن الجبالُ ــ مع تركيب العقل فيها ــ لانقادتْ

---

[29] اعلمْ أنّ للتدبّر فوائد كثيرة غير ما ذُكر، لكنّ الغرض من هذا الكتاب هو الإشارة والدّلالة، لا الإحاطة و الاستقصاء، خصوصاً في الجانب النّظريّ من التّدبّر.

[30] شرح مقدّمة التفسير، ص7.

لمواعظِهِ، ولرأيتَها ـــ على صلابتها و رَزانتها ـــ خاشعةً متصدِّعةً متشقِّقةً من خشية الله، وأنتم ـــ أيّها المقهورون بإعجازه ـــ لا ترغبون في وعدِهِ، ولا ترهبون من وعيدِهِ!"[31].

"وقد ثبتَ في الحديث المتواتر أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لما عُمِلَ له المنبر، وقد كان يومَ الخطبة يقف إلى جانبِ جذعٍ من جذوع المسجد، فلمّا وُضع المنبرُ أولَ ما وُضعَ وجاء النّبيُّ صلى الله عليه وسلم لِيَخطُبَ فجاوزَ الجذعَ إلى نحو المنبر، فعندَ ذلك حنَّ الجذعُ وجعل يَئِنُّ كما يَئِنُّ الصّبيُّ الذي يسكن لِما كان يَسمع مِن الذِّكْر والوحيِ عندَه، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسنُ البصريُّ بعدَ إيرادِهِ: فأنتم أحقُّ أنْ تشتاقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن الجذع، وهكذا هذه الآيةُ الكريمة إذا كانت الجبال الصُّمُّ لو سمعتْ كلامَ الله وفَهِمَتْهُ لَخَشَعَتْ وتصدّعتْ من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟!"[32].

فالتّدبّر ـــ قبل أيِّ شيءٍ آخر ـــ هو فريضةٌ من الفرائض التي افترضها الله تعالى على عبادِهِ المؤمنينَ به، مَنْ أدّاها استحقّ الثّوابَ عليها بحسبِ نيّتِهِ، ومَن تركها استحقّ الذمَّ والعقاب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ طه: ١٢٤؛ "فَذِكْرُهُ: كلامُهُ الذي أنزلهُ على رسوله، والإعراضُ عنه: تَرْكُ **تدبّرِهِ** والعملِ به، والمعيشةُ الضَّنْك، فأكثر ما جاء في التّفسير أنّها: عذابُ القبر"[33].

ثانياً: التحقّق بصفة الخيريّة في الأمّة:

لقولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصّحيح: " **خيرُكُم مَن تعلَّم القرآنَ وعَلَّمَه**"[34]، علماً أنّ خطباءَ المنابر والمتحدِّثينَ والمحاضِرينَ ـــ و عوامُّ المسلمين في ذلك تَبَعٌ لهم ـــ كثيراً ما يستشهدون بهذا الحديثِ على ثبوت الخيريّة لِمَنْ تعلّمَ أحكامَ تلاوة القرآن الكريم وعَلَّمَها لغيره؛ حتى صارتْ أذهانُنا ـــ حين نسمعُ هذا الحديثَ ـــ تنصرف إلى هذا المعنى دونَ غيره!

---

[31] الجامع لأحكام القرآن/ القرطبيّ، 18 / 44.
[32] تفسير ابن كثير، ص107-108.
[33] الفوائد/ ابن القيّم الجوزيّة، ص246.
[34] صحيح الجامع الصغير وزيادته/ محمّد ناصر الدّين الألبانيّ، رقم (3319).

ولئِنْ كان تَعَلُّمُ أحكامِ التِّلاوة وتعليمُها داخلاً في الخيريّة التي بَيَّنها الحديثُ الشّريف وحثَّ عليها؛ فإنّ تعلُّمَ التدبّرِ وتعليمَهُ آكدُ وأولى بالدّخول في هذه الخيريّة؛ فإنّه قد "دخل في معنى قوله صلى الله عليه وسلم (**خيرُكم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه**) تعليمُ حروفِهِ ومعانيهِ جميعاً؛ بل تعلُّمُ معانيهِ هو المقصودُ الأول بتعليمِ حروفِه ، وذلك هو الذي يَزيد الإيمان ، كما قال جندبُ بن عبد الله و عبد الله بن عمر وغيرُهما: تَعَلَّمْنا الإيمانَ، ثمّ تَعَلَّمْنا القرآنَ؛ فازْدَدْنا إيماناً، وأنتم تتعلّمون القرآنَ، ثمّ تتعلّمون الإيمان"[35]؛ وهذا هو السّببُ في أنّ الواحدَ مِن الصّحابة كان يبقى مدّةً في حِفْظِ السّورةِ الواحدة ــ مع قوّةِ حِفْظِهِم واتّقادِ أذهانِهم ــ؛ ولهذا أيضاً "كان أهلُ القرآنِ هم العالِمونَ به، والعامِلونَ بما فيه، وإنْ لم يحفظوهُ عن ظَهْرِ قَلْب. وأمّا مَن حَفِظَهُ و لم يَفْهَمْهُ و لم يَعملْ بما فيه، فليس مِن أهلِهِ، وإنْ أقام حروفَهُ أقامةَ السَّهْم"[36]!

بل إنّ تدبُّرَ القرآنِ الكريم كان يُمَثِّلُ ميزاناً للتّفاضُلِ بين الصّحابةِ أنفسِهم رضي الله تعالى عنهم، وليس السَّبْقُ في الإسلام و الهجرةُ والجهادُ فَحَسْب؛ فعن ابنِ عبّاسٍ رضي الله تعالى عنهما قال: "كان عُمَرُ يُدخِلني مع أشياخ بدْرٍ، فكأنّ بعضَهم وَجَدَ في نفسِهِ[37]، فقال: لِمَ تُدخِلُ هذا معنا ولنا أبناءٌ مِثْلُهُ؟! فقال عُمَرُ: إنّه مَنْ قد عَلِمْتُم، فدعاهُ ذاتَ يومٍ فأدخَلَهُ معهم، فما رُئِيتُ أنه دعاني يومئذٍ إلاّ لِيُرِيَهُم، قال: ما تقولون في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؟ فقال بعضُهُم: أُمِرْنا أنْ نحمَدَ اللهَ ونستغفرَهُ إذا نُصِرْنا وفُتِحَ علينا، وسَكَتَ بعضُهُم فلم يَقُلْ شيئاً، فقال لي: أكذاكَ تقولُ يا ابْنَ عبّاسٍ؟ فقلتُ: لا، قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أجَلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أعْلَمَهُ له. قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾، وذلك علامةُ أجَلِكَ؛ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾. فقال عمرُ: ما أعلمُ منها إلاّ ما تقولُ" [38].

---

[35] مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيميّة، 403/13.
[36] زاد المعاد في هدْي خير العباد/ ابن القيّم الجوزيّة، ص338.
[37] أي: حَزِنَ. أنظر: لسان العرب، مادّة (وجد)، 446/3.
[38] رواه البخاريّ برقم (4970).

ثالثاً: التّلذّذُ بالقرآن الكريم:

إنّ المسلمَ حين يقرأ آياتٍ مِن القرآنَ الكريم مُتدبِّراً إيّاها؛ يجدُ في قلبِهِ لذّةً لا تعدِلُها لذّة، وربّما لا يستطيع هو نفسُهُ أنْ يصفَها بالكلمات، كيف لا يكونُ هذا التّلذّذُ وهو يقرأ كلامَ الخالقِ سبحانه منه إليه؟! .. وهذا "التّلذّذ الذي يحصل مِن التّدبُّرِ يجد القارئُ طَعْمَهُ في قلبِهِ؛ بزيادةِ الإيمان أو براحةٍ في القلب، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ الرعد: ٢٨ "[39]؛ ولهذا فإنّ "مَنْ لم يكنْ له عِلْمٌ وفَهمٌ وتقوى و**تدبّر**: لم يُدركْ مِن لذّة القرآنِ شيئاً"[40].

وربّما لا يكون هذا الكلام مفهوماً عندك الآن، ولكنْ ابدأ بتدبُّرِ القرآن وسترى بنفسك! .. فلو بقيتُ أُحدِّثُكَ عن طَعْمِ التّفاح ـــ على فرْضِ أنّك لم تتذوّقْهُ مِن قبلُ ـــ فإنّك لن تفهمَ حلاوةَ طَعْمِهِ، ولو تحدّثتُ معك لساعاتٍ، ولكنّ الأمر سيختلفُ حين تمسكُ التّفاحةَ بيدِكَ وتضعُها في فَمِك.. أليس كذلك؟!

رابعاً: الحصولُ على بَرَكَة القرآن الكريم:

هذه البَرَكة التي ينالُها مَنْ قرأ القرآنَ الكريم فتأثّرَ به، والتي يصوِّرها لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "**مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّة؛ ريحُها طيِّبٌ وطعمُها طيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآنَ كَمَثَلِ التّمرة؛ لا ريحَ لها وطَعْمُها حُلْوٌ، ومَثَلُ المنافق الذي يقرأ القرآنَ كَمَثَلِ الرَّيحانة؛ ريحُها طيِّبٌ وطَعْمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذي لا يقرأ القرآنَ كمَثَلِ الحنظلة؛ ليس لها ريحٌ وطعمُها مُرٌّ**"[41]، "ومَن أصغى إلى كلامِ الله وكلامِ رسولِهِ بعَقْلِهِ، وتَدَبَّرَهُ بقلبِهِ: وَجَدَ فيه مِن الفَهْمِ والحلاوةِ **والبَرَكَةِ** والمنفعةِ ما لا يجدُهُ في شيءٍ من الكلام، لا منظومِهِ ولا منثورِهِ"[42]، بل إنّ "لِتدبُّرِ القرآن وتَفَهُّمِهِ مِن مزيدِ العِلْم والإيمان ما لا يُحيطُ به بَيَان"[43].

---

[39] تعليم تدبّر القرآن الكريم، ص22.
[40] البرهان في علوم القرآن/ الزركشي، 155/2.
[41] صحيح الجامع الصغير، رقم (5840). وأنظر: تدبّر القرآن/ سلمان بن عمر السنيدي، ص18.
[42] اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم/ شيخ الإسلام ابن تيميّة، ص749.
[43] التّحفة العراقيّة في الأعمال القلبيّة/ ابن تيميّة، ص443.

خامساً: حاجَةُ القَلْب إلى التّدبُّر:

ولعلّ هذه الحاجةَ هي من أهمِّ فوائد تدبّرِ القرآن الكريم؛ إذْ "إنّ في القلب حاجةً لا يَسُدُّها إلا ذِكْرُ الله والتلذّذُ بكريم خِطابه، وإنّ فيه وحشةً لا يُزيلها إلا الأُنْسُ بكتابه، وإنّ فيه قَلَقاً وخوفاً لا يؤمِّنُهُ إلا السّكونُ إلى ما بشّر اللهُ به عبادَه، وإنّ فيهِ فاقةً لا يُغْنيها إلا التزوّدُ من حِكَمِ القرآن وأحكامِه، وإنّه لعلى حيرةٍ واضطراب لا يُنجيهِ منها ويهديه إلى سَواء الصِّراط إلا الاهتداءُ بنور ربِّه وبرهانِ كتابه العزيز؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ يونس: ٥٧" [44]، وإنّ هذا كلَّهُ لا يتحقّقُ بقراءة القرآن الكريم كما تُقرأ الصّحفُ اليوميّة ـــ والتي هي قراءة أغلب المسلمين للقرآن الكريم ـــ، وإنّما يتحقّق بقراءة القرآن بالتّدبُّر؛ قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه : "إنّ أقواماً يقرؤون القرآنَ لا يُجاوِزُ تَرَاقِيَهُم، ولكنْ إذا وقع في القلب فَرَسَخَ فيه: نَفَع"[45]، وقال إبراهيم الخوّاص رحمه الله تعالى: "دواءُ القلب خمسةُ أشياء: **قراءةُ القرآن بالتّدبّر** ، ..."[46]، فبدأ بها.

والقرآن الكريم نَزَلَ على القلْب: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧﴾ البقرة: ٩٧، فهو لم يَنْزِلْ على اللّسان، ولهذا؛ فإنّ أثَرَ القرآن يَظهرُ حينَ يقرأهُ القلبُ، لا حين يقرأهُ اللّسان وحدَهُ !

ولذلك؛ "فأوّلُ جارحةٍ تُخاطَبُ بهذا القرآن هي القلب، فإنْ أنصتَ القلبُ؛ أنصتَتْ تَبَعاً له بقيّةُ الجوارح، وإنْ أعرضَ؛ كانتْ كالرّعِيّةِ بلا راعي"... "ولذا؛ هُيِّيءَ قلبُ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم لِتَلَقِّي القرآنِ قبلَ نزولِهِ عليه؛ فَعَن أنسِ بن مالكٍ: (أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أتاهُ جبريلُ عليه السّلام وهو يلعبُ مع الغِلْمان، فأخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قلبِهِ،

---

[44] تدبّرُ القرآن، ص18-19.

[45] رواه مسلم برقم (822).

[46] التبيان في آداب حملة القرآن/ النّووي، ص83. وتمام الخمسة ـ للفائدة ـ: "وخلاءُ البطن، وقيام اللّيل، والتّضرّعُ عند السَّحَر، ومجالسة الصّالحين".

فاستخرجَ القلبَ، فاستخرج منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظُّ الشّيطانِ منك ...) رواه مسلمٌ، وللبخاريِّ نحوه"[47].

وقد أفاض ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى في الحديث عن السّبيل إلى سلامة القلبِ وشفائِهِ من الأمراض في كتابِهِ الرّائع (مدارج السّالكين)، ثمّ لخّصَ كلامَهُ بقوله: "ومِلاكُ ذلك كلِّهِ أمران:

أحدُهما: أنْ تنقلَ قلبَك من وطنِ الدّنيا فتُسْكِنَهُ في وطنِ الآخرة، ثمّ[48] **تُقْبِلُ به كلِّهِ على معاني القرآن واستجْلائِها وتدبُّرِها**، وفَهْمِ ما يُراد منه وما نزل لأجْلِهِ، وأخْذِ نصيبِكَ وحظِّكَ مِن كلِّ آيةٍ مِن آياتِه، وتُنـــزُلُها على داءِ قلبِك.

فهذه طريقةٌ مختصرةٌ قريبةٌ سهلة، مُوصِلةٌ إلى الرّفيق الأعلى، آمِنةٌ، لا يلحقُ ساكنَها خوفٌ ولا عَطَب، ولا جوعٌ ولا عَطَش، ولا فيها آفةٌ من آفاتِ سائر الطّريق البتّة، وعليها من الله حارسٌ وحافظٌ يكلأ السّالكينَ فيها ويحميهم ويدفع عنهم.

ولا يعرف قدْرَ هذه الطّريق[49] إلا مَن عرف طُرُقَ النّاس وغوائلَها وآفاتِها وقُطّاعِها، والله المستعان"[50].

وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا المقام: أنّنا كثيراً ما نشْكو من قَسْوة قلوبنا وسيطرةِ الشّهوات عليها وعدمِ تأثُّرِنا بالموعظة، ولعلَّ مِن أهمِّ أسباب ذلك: ابتعادَنا عن القرآنِ الكريم وتدبُّرِه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ الشورى: ٥٢؛ فالقرآنُ الكريم روحٌ، و المسلمُ ـــ بل الأمّةُ الإسلاميّةُ جمعاء ـــ مِن غيرِ القرآن: جَسَدٌ لا روحَ فيه[51]، وليس له نورٌ يهديه.

---

[47] فنّ التدبّر في القرآن الكريم/ د.عصام العويّد، ص31.
[48] وهذا هو الأمر الآخَر.
[49] كلمة (الطّريق) تُذكّر و تؤنّث، لسان العرب: 220/10.
[50] مدارج السّالكين، ص267.
[51] هذه العبارة مستفادة من درس للعالم المربّي الشّيخ محمود غريب رحمه الله تعالى، إمام وخطيب جامع (البُنيّة) الأسبق ببغداد.

"وبالجملة: فلا شيءَ أنفعَ للقلب مِن قراءة القرآن بالتّدبُّر والتّفكُّر؛ فإنّه جامعٌ لجميع منازل السّائرين، وأحوال العاملين، وهو الذي يُورث المحبّةَ والشّوقَ والخوفَ والرّجاءَ والإنابةَ والتّوكُّلَ والرِّضا والتّفويضَ والشُّكْرَ والصّبر، وسائرَ الأحوال التي بها حياةُ القلب وكمالُهُ، وكذلك يَزجُرُ عن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة التي بها فسادُ القلب وهلاكُهُ"... "فقراءةُ القرآن بالتفكّر هي أصْلُ صَلاحِ القلب"[52].

فَـــ "سبحانَ الله! ماذا حُرِمَ المُعْرِضون عن نصوص الوحي واقتباسِ العلم من مِشْكاتِهِ مِن كنوزِ الذّخائر؟! وماذا فاتَهُم مِن حياةِ القلوب واستنارةِ البصائر؟! قَنَعُوا بأقوالٍ استنبطَتْها معاولُ الآراء فِكَراً، وتَقَطَّعوا أمْرَهُم بينَهُم لأجْلِها زُبُراً، وأوحى بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القول غروراً؛ فاتّخذوا لأجلِ ذلك القرآنَ مهجوراً"[53].

[52] مفتاح دار السعادة، ص535 – 536.
53 مدارج السّالكين، 9/1.

التّطبيق العمليّ

- الآن، وقد تبيَّن لك أنّ تدبُّرَ القرآن الكريم فريضةٌ افترضها الله تعالى على عبادِهِ بِنَصِّ القرآن الكريم ــ كما سبق بيانُهُ ــ: اعقِدْ عزْمَك على أداءِ هذه الفريضة، واشْحَذْ هِمّتَك على تدارُكِ ما فاتك، واستغفرْ الله تعالى على ما سَلَف ومضى!
- إذا كنتَ ممّن يتأسّفونَ لِعِدَم إتقانِهم أحكامَ التِّلاوة، أو كنتَ ممّن أتقنَها ولكنْ لم تسنحْ لك الفرصةُ في تعليمِها؛ لا تحزنْ، وتَدبَّرْ كتابَ الله تعالى؛ لتكونَ ممّن قال فيهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (**خيرُكم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه**)[54].
- اجتهدْ ــ مِن اليوم فصاعداً ــ أنْ تقرأَ القرآنَ الكريم بقلبِك، لا بلسانِك فحسب!

[54] تقدّم تخريجه.

المبحث الرابع:

تَدبَّرْ، لا تُفسِّرْ!

مِن المعلوم أنّ مَنْ يتصدّى لتفسير القرآن الكريم لا بدّ فيه من شروطٍ كثيرة، كأنْ يكونَ عالماً بعلوم القرآن المختلفة، وعلوم الفقه وأصولِهِ، والحديثِ وعلومِهِ، واللّغة وفنونِها، والعقائد، وغيرها من العلوم، وهذا أمرٌ مُسَلَّمٌ به؛ نظراً لخطورة تفسيرِ كلام الله تعالى وعِظَمِ شأنِه؛ لأنّ المُفَسِّرَ يُبيِّنُ مُرادَ الله تعالى مِن كلامِه، لكنْ! أنْ يمتنعَ المسلمُ عن تدبُّرِ القرآن الكريم ـــ ظنّاً منه أنّه مرادفٌ للتّفسير ـــ فهذا ما ينبغي التّنبيهُ عليه، وهذا ما أودّ أن أوضحهُ في هذا المقام؛ لأنّ "هناك مَن يفهم تدبُّرَ القرآن الكريم على أنّه تفسيرٌ له فحسْب، في حين أنّ التّدبُّر هو ثمرةُ فَهْمِ القرآن وتفسيرِهِ، والذي ينبغي على أهل التّدبُّر والتّأمُّل في كتاب الله أنْ يستعينوا بأقوال أهل العلم في تفسير كتاب الله؛ ليكون تدبُّرُهم وفَهْمُهُم مُتّسِقاً تماماً مع مرادِ الله مِن كلامِهِ"[55].

إنّ الهدفَ من **التّفسير** هو: بيانُ معاني كلمات القرآن الكريم، والمقصودِ مِن إشاراتِهِ ودلالاتِه؛ أي أنّ ثمرَتُهُ (نَظَرِيّة)، أمّا الهدف مِن **التّدبّر** فهو: الاتّعاظُ والاعتبارُ بآيات القرآن، وهو يكون بعدَ تفسيرِها و فَهْمِها؛ أي أنّ ثمرَتُهُ (عمليّة)؛ فالتدبُّر ممارسةٌ فرديّةٌ خاصّة، في حين أنّ التّفسيرَ ممارسةٌ جماعيّة عامّة.

وأعني بالفرديّة هنا: أنّ تدبُّرَك مُلزِمٌ لك أنت لا لِغيرك[56]، بخلاف التّفسير؛ ولهذا خَفَّتْ شروطُ التدبّر؛ ولهذا أيضاً قيل: (**التّفسير للعلماء، والتّدبُّر للجميع**)!

ثمّ، كيف تكون غزارةُ العِلْم وكَثْرتُهُ شَرْطاً في حصولِ التّدبّر، مع أنّه أمرٌ مطلوبٌ من جميع النّاس ـــ مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم ـــ بِنَصِّ القرآن الكريم؟!

---

[55] هكذا عاشوا مع القرآن، قصص ومواقف/ د.أسماء بنت راشد الرّويشد، ص29 بتصرّف يسير.

[56] لكنّ هذا لا يمنع أنْ يحصلَ له قبولٌ واستحسانٌ من الآخرين، بل هذا ما درج عليه الصّالحون من عصور الإسلام الأولى إلى يومنا هذا.

وإذْ فَهِمْتَ الفَرْقَ بين التّفسيرِ والتّدبُّر؛ عَلِمْتَ المقصودَ من قولِ أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه: " أيُّ أرضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني، إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم"[57]، وأمثالِ ذلك مِن القصص المرويّةِ عن السَّلَفِ الصّالح، التي ذَكَرَتْ أنّهم كانوا يتهيَّبونَ الكلامَ في القرآن الكريم؛ فإنّ ذلك إنّما كان في تفسيرِ ما لا عِلْمَ لهم به، أمّا حالُهُم مع التّدبُّر فشيءٌ آخَر؛ فإنّهم ـــ هُم ـــ حَمَلَةُ لوائِهِ والقائمون بأمرِهِ!

ولا يعني هذا التّفريقُ بين التّدبُّر والتّفسير، وكونُ التّدبُّر متاحاً للجميع: التّقليلَ من أهميّة التدبّر؛ قال المناويّ رحمهُ الله تعالى: "كم مِن معانٍ دقيقةٍ من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجرِّد للذِّكْر والفِكْر، تخلو منها كُتُبُ التّفاسير، ولا يطّلع عليها أفاضلُ المفسِّرين ومحقِّقي الفقهاء!"[58].

بل إنّ التّفسيرَ نفسَه ـــ وهو الذي يُشترط له العلومُ الكثيرة كما أسلفتُ ـــ لا يمتنع بكليّتِهِ عن عموم المسلمين؛ فقد قال ترجمانُ القرآن عبد الله بن عبّاس رضي الله تعالى عنهما:

"التّفسيرُ على أربعةِ أوجُهٍ: وجهٌ تعرفُهُ العربُ مِن كلامها، وتفسيرٌ لا يُعْذَرُ أحدٌ بجهالتِهِ، وتفسيرٌ يعلمُهُ العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمُهُ أحدٌ إلاّ الله"[59].

فالأوّل: (**وجهٌ تعرفهُ العربُ من كلامها**): "وهو ما يُعرف في اللّغة العربيّة، مثل: الكهف و العرش و السُّرُر و منضودة و الطَّلْح وما أشبه ذلك"[60]مِن الألفاظ التي وردتْ في القرآن الكريم.

والثاني: (**تفسيرٌ لا يُعْذَر أحدٌ بجهالته**): "وهو تفسيرُ ما يجب اعتقادُهُ أو العملُ به، كتفسير قولِهِ تعالى: (**أَقِيمُوا الصَّلاة**)؛ فيجب علينا أنْ نعرفَ معنى إقامة الصلاة التي أُمرنا بها، وكذلك ما يجب علينا اعتقادُهُ، كالإيمان بالرّسل ونحوهم؛ فإنّه لا يُعذر أحدٌ بجهالته"[61].

---

[57] تفسير ابن كثير ، ص12 .
[58] مفهوم التدبّر ، ص291 .
[59] تفسير ابن كثير ، 14/1 .
[60] شرح مقدّمة التّفسير ، ص150 .
[61] المصدر السّابق .

والثالث: (**تفسيرٌ يعلمُهُ العلماء**): "مثل العامِّ والخاصِّ، والمطلق والمقيَّد، والنّاسخ والمنسوخ، وما يتعلّقُ بذلك من الأحكام، فإنّ هذا ليس كلُّ أحدٍ يعرفُهُ، وليس واجباً على كلِّ أحد؛ بل هو فَرْضُ كفاية[62]"[63].

والرابع: (**تفسيرٌ لا يعلمُهُ إلاّ الله**): "مثل العِلْمِ بحقائقِ صفات الله عزّ وجلّ وكيفيّتها، وكذلك العِلْمُ بحقائقِ ما أخبر الله تعالى به عن اليوم الآخر، وعن الجنّة والنّار، وما أشبهَ ذلك ممّا لا يمكننا إدراكُهُ، فهذا مَنْ ادّعى عِلْمَهُ فإنّه كاذب؛ لأنّه لا يعلمُهُ إلاّ الله تعالى[64].

فيتبقّى ـــ إذنْ ـــ ثلاثةُ وجوهٍ متاحةٍ للتّفسير، وإذا سلّمْنا بأنّ الوجهَ الثّالثَ منها لا يعلمُهُ إلاّ العلماءُ المتخصِّصون في التّفسير؛ فهذا يعني أنّ **ثُلُثَيْ التّفسير** هما في مقدور جميع المسلمين! فما بالكَ بالتّدبُّر الذي شُروطُهُ أخَفُّ مِن شروط التّفسير بكثير ؟!

---

[62] هو ما طلبَ الشّارعُ حصولَهُ من جماعة المكلّفين، لا من كلِّ فردٍ منهم؛ لإنّ مقصود الشّارع حصوله في الجماعة، فإذا فعله بعض الأفراد سقط الفرض عن الباقين. أنظر: الوجيز في أصول الفقه/ عبد الكريم زيدان، ص36.

[63] شرح مقدّمة التّفسير، ص150.

[64] المصدر السابق.

التّطبيق العمليّ

- لا تُفسِّرْ القرآنَ الكريم، إلاّ إذا كنتَ عالماً بما تقول، أو ناقلاً عَمّن يكون كذلك.
- لا تجعلْ مِن العبارةِ السّابقة مانِعاً لك مِن تحصيلِ حَظِّكَ من التّفسير، وأعني به: تفسيرَ ما تعرفُهُ العربُ مِن كلامها، وتفسيرَ ما لا يُعْذَرُ أحدٌ بجهالتِهِ!
- تذكّرْ دائماً أنّ تدبُّرَك للآياتِ القرآنيّة ليس تفسيراً لها، وأنّه مُلْزِمٌ لك وحدَك، إلاّ إذا قَبِلَهُ الآخَرون منك.

الفصل الثاني:

شروطٌ تَدفع..
وعَوائقُ تمنع..
وبينهما شُبُهات!

بعد أنّ تعلّمنا في الفصل الأوّل معنى تدبُّرِ القرآن الكريم، وأهميّتَه، وتمايُزَهُ عن التّفسير وافتراقَهُ عنه؛ صار لِزاماً الآنَ أنْ نخطوَ خطوةً إلى الأمام، فنتعرّفَ على **الشّروط** التي لا بدّ مِن توفُّرِها في الشّخص الذي يريد أنْ يمارسَ عمليّة التّدبّر ـــ بشكلِها الصّحيح ـــ حتّى تُؤتِيَ أُكُلَها، و**العوائقِ** التي تحولُ دونَ حصولِ هذه العمليّة.

وبعد ذلك، نتعرّف على طائفةٍ من **الشّبهات** التي عاشتْ في أذهان المسلمينَ عن التّدبُّر؛ حتّى صارتْ حاجزاً مانِعاً، يَحُولُ بينَهم وبَيْنَه!

المبحث الأول:

شروط التّدبُّر

إنّ تدبُّرَ القرآنِ الكريم ــ بوصفِهِ عمليّةً يُراد منها تحقيقُ منافعَ روحيّةٍ في المقام الأوّل، ثمّ تتلوها منافعُ سلوكيّة ــ لا بدّ فيه من شروطٍ محدّدة، يجب وجودِها لكي يؤدِّيَ التّدبُّرُ مهمّتَه.

والمرادُ بالشَّرْطِ: "أمرٌ خارجٌ عن حقيقة المشروط، يلزمُ من عَدَمِهِ عَدَمُ المشروط، ولا يلزمُ مِن وجودِهِ وجودُهُ "[65].

وبناءً على هذا؛ فشروطُ التّدبُّر هي أمور ــ في نفسِها ــ خارجَةٌ عن عمليّة التّدبُّر، ولكنّ وجودَها ضروريٌّ لحصول التّدبُّر، ويلزمُ من عَدَمِ وجودها: عَدَمُ وجود التّدبُّر.

وهذه الشّروط بَيَّنَتْها آيةٌ واحدةٌ في كتاب الله تعالى، هي قولُهُ سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ ق: ٣٧؛ فأنت ترى أنّ الآيةَ قد نصّتْ على شروطٍ ثلاثة تحصلُ بها التّذكرةُ والاتّعاظ لقارئ القرآن الكريم[66]، وهذه الشّروط هي:

أوّلاً: (كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ): أي: المحلَّ القابلَ للتّدبُّر، ونلاحظ أنّ كلمة (قلب) جاءتْ بصيغة النَّكِرة[67]؛ فيكون المعنى: أنّ الذِّكْرى تحصل لِمَنْ كان له ما يَصِحُّ أنْ يُطلقَ عليه (قَلْب)؛ بحيثُ يمكنُهُ أنْ يمارسَ مهمّتَهُ في فَهْمِ كلماتِ القرآن وتَعَقُّلِها، ويُوضِّحُهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ الحج: ٤٦.

وفي هذا بشرى لنا وتطمينٌ بأنّه لا يوجد قلبٌ يمتنع عنه التّدبُّر، اللّهمَّ إلاّ القلوبَ التي طَبَعَ اللهُ عليها بسببِ كُفْرِ أصحابها وتكذيبِهم وتَأبِّيهم عن طلب الهُدى مِن القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا

---

[65] علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلّاف، ص118.
[66] سواء كان القارئ مسلماً أم غيره، كما سيأتي بيانه.
[67] وهي ما يقابل (المعرفة) في اللغة.

﴿كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ الأعراف: ١٠١، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد: ٢٤؛ فَتَدَبُّرَ القرآنِ يُقابلُهُ القلوبُ المقفلة: فإمّا قلبٌ يتدبَّر القرآن ويتذكَّرُ به، وإمّا قلبٌ مُقْفَلٌ؛ حتّى صار صاحبُهُ كأنّهُ لا قَلْبَ له أصلاً، فكيف يكون منه تدبُّرٌ أو تّذَكُّر؟!

والّذي يقرأ القرآنَ الكريم طلباً للهدى وبحثاً عن الحقِّ ــ ولو كان مُشْركاً أو منافقاً ــ فإنّ طلبَهُ وسَعْيَهُ دليلانِ على وجود بذرةِ الخير في قلبِهِ، وأنّه يملك ما يمكن تسميتُهُ (قَلْباً)؛ فتشمله الآية[68]، و يؤيِّد هذا ما نشاهدُهُ ونسمعُهُ يوميّاً مِن إسلامِ الجموعِ الغفيرة ــ بحمْدِ اللهِ تعالى وفَضْلِهِ ــ مِن غير المسلمين بعد قراءتِهم القرآنَ الكريم بِتدبُّر، ومن البديهيِّ أنّ قلوبَ غيرِهِم من أهلِ الإيمان ــ ولو كانوا عصاةً ــ أولى بذلك.

أقول هذا؛ لكي أؤكِّدَ ــ مرّةً أخرى ــ ضرورةَ تغيير الرأيِ الخاطئ الذي ساد جموعَ المسلمين اليوم، مِنْ أنّ فَهْمَ القرآنِ وتدبُّرَهُ لا يكونُ إلا مِن أصحابِ القلوبِ التقيّةِ النقيّةِ الخالصة، نعم! إنّ هؤلاء يحصل لهم من التّدبُّر والاتِّعاظ والاعتبار ما لا يحصل لغيرهم، ولكنّ هذا لا ينفي حصولَ التدبّر ممّنْ هو دونَهُم في سُلَّم الإيمان والتّقوى، كلٌّ بحسبِ إيمانِهِ وتقواه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ البقرة: ٦٠.

ثانياً: (أَلْقَى ٱلسَّمْعَ): أي: استمع إلى آياتِ القرآن الكريم، سواءٌ قرأها بنفسِهِ أو استمع إليها من غيره.

وهذه العبارة توحي بالاهتمامِ بالمسموع؛ فلم يقُلْ: (سَمِعَ)، بل قال : (أَلْقَى ٱلسَّمْعَ)، كألقى الحبلَ، وألقى المرساة.

ثالثاً: (وَهُوَ شَهِيدٌ): أي: وهو حاضِرُ الذِّهْن.

ونلاحظ أنّ كلمة (شَهِيدٌ) على وزن (**فعيل**) ؛ فهي صيغةُ مبالَغة، وهذا يدلّ على الاهتمام بالمسموع أيضاً؛ فلا بدّ ــ حين تقرأ القرآنَ ــ أنْ لا يَشغلَكَ شيءٌ عمّا تقرأ، سواءٌ كان

[68] كيف لا يكون ذلك وهم مخاطبون بالتدبّر، مطالَبون به؟! وقد سبق بيان هذا في الفصل الأول، المبحث الثاني.

هذا الشّيءُ صوتاً مسموعاً، أم صورةً مرئيّة، أم فكرةً تجولُ في الخاطر! وقد قيل لبعض السَّلَف: "إذا قرأتَ القرآنَ: تُحدِّثُ نفسَكَ بشيئ؟ فقال: أوَ شيءٌ أحبُّ إليَّ مِن القرآن حتّى أُحدِّثَ به نفسي؟!" [69].

وهذا كلُّ ما يتطلَّبُهُ الأمرُ لِتدبُّرِ القرآن الكريم؛ "فإذا حَصَلَ المؤثِّرُ، **وهو: القرآن**، والمحلُّ القابِل، وهو: **القلبُ الحيُّ**، و وُجِدَ الشّرطُ، وهو: **الإصْغاءُ**، وانتفى المانعُ، وهو: **اشتغالُ القلبِ** وذُهولُهُ عن معنى الخطاب وانصرافُهُ عنه إلى شيءٍ آخرَ؛ حصل الأثَرُ، وهو: **الانتفاعُ والتّذكُّر**"[70].

"والنّاس ثلاثة:

رجلٌ قلبُهُ مَيْتٌ: فذلك الذي لا قَلْبَ له. فهذا ليستْ هذه الآيةُ ذكرى في حَقِّهِ.

الثاني: رجلٌ له قَلْبٌ حيٌّ مستعدّ، لكنّه غيرُ مستمعٍ للآيات المتلوّة، التي يُخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إمّا لِعَدِمِ وُرُودِها، أو لوصولها إليه ولكنّ قلبَهُ مشغولٌ عنها بغيرها؛ فهو غائبُ القلب ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذِّكرى، مع استعدادِهِ ووجود قَلْبِهِ.

والثالث: رجلٌ حيُّ القلبِ مستعدٌّ، تُلِيَتْ عليه الآيات، فأصْغَى بِسَمْعِه، وألقى السّمْعَ وأحضرَ قلبَهُ، و لم يُشْغِلْهُ بغير فَهْم ما يسمعُهُ؛ فهو شاهِدُ القلب، مُلْقٍ السّمعَ. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوّة والمشهودة.

فالأوّل: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.

والثّاني: بمنزلة البصير الطّامح ببصرِهِ إلى غير جهةِ المنظورِ إليه؛ فكلاهما لا يراه.

والثّالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّقَ إلى جهة المنظور، وأتْبَعَهُ بَصَرَهُ، وقابلَهُ على توسُّطٍ من البُعْد والقُرْب؛ فهذا هو الذي يراه.

---

[69] إحياء علوم الدّين : الإمام أبو حامد الغزاليّ ، 255/1 .
[70] الفوائد : ابن القيّم ، ص4 .

فسبحان مَن جعل كلامَهُ شفاءً لما في الصّدور!

فإنْ قيل: فما موقعُ (أو) مِن هذا النَّظْمِ على ما قَرّرتَ؟!

قيل: فيها سِرٌّ لطيف، ولسنا نقول: إنّها بمعنى (الواو). كما يقول ظاهريّةُ النُّحاة.

فاعلمْ أنّ الرّجل قد يكون له قلبٌ وَقّاد، مليءٌ باستخراج العِبَر، واستنباط الحِكَم؛ فهذا قلبُهُ يُوقِعُهُ على التّذكُّرِ والاعتبار، فإذا سمع الآياتِ كانتْ له نوراً على نور. وهؤلاء أكملُ خلْقِ الله، وأعظمُهم إيماناً وبصيرة؛ حتى كأنّ الذي أخبرهم به الرّسولُ مُشاهَدٌ لهم... فصاحبُ هذا القلب إذا سمع الآياتِ وفي قلبِهِ نورٌ مِن البصيرة: ازداد بها نوراً إلى نورِهِ.

فإنْ لم يكنْ للعبدِ مِثْلُ هذا القلب فألقى السّمْعَ وشَهِدَ قَلْبُهُ ولم يَغِبْ: حصل له التّذكّر أيضاً: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ البقرة: ٢٦٥، و (الوابل) و (الطَّلّ) في جميع الأعمال وآثارِها وموجِباتها. وأهل الجنّة: مُقَرَّبون سابقون، وأصحابُ يمين، وبينَهما في درجات التّفضيل ما بينَهما"[71].

[71] مدارج السّالكين، 475/1 - 477.

التّطبيق العمليّ

- ضَعْ في بالِك دائماً أنّ القرآن الكريم نَزَل على القلوب: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ الشعراء: ١٩٢ – ١٩٤، فمنها يكون الاستقبالُ والاستماع، وفيها يكون التّفاعلُ والانتفاع.
- إحرصْ ــ وأنت تقرأ آياتِ القرآن ــ على أنْ تكونَ حاضرَ الفِكْر، كامِلَ التّركيز فيما تقرأ.. وابتعدْ عمّا يُشَوِّشُ عليك ويَشْغَلُكَ وَقْتَ القراءة.
- هل حصل لك مِن قبلُ أنْ رأيتَ مشهداً تلفازيّاً عاطفيّاً – مثلاً – فتأثّرتَ بِهِ ودَمَعَتْ عيناك له؟ .. هل تظنّ أنه يمكنك أنْ تتفاعلَ مع آياتِ القرآن الكريم ــ ولله تعالى المَثَلُ الأعلى ــ بمثلِ ذلك التّفاعلِ والتّأثُّر؟!

المبحث الثاني:

عوائقُ في طريق التّدبُّر

إنّ القلب إنّما سُمِّيَ (قلباً) بسبب تَقَلُّبِه[72]، وعَدَمِ ثباتِهِ على حالٍ واحدة؛ ولعلّ هذا هو السّببُ في أنّ النّبيَّ صلى الله عليه وسلم "**كان أكثر دعائِهِ: يا مُقلِّبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي على دِينِك**"[73]؛ فقد يَطرأ على القلب من الصِّفات ما يمنعُهُ من أداءِ مهمّتِهِ في التّذكُّرِ والاعتبار، مثلُ الطَّبْعِ، والخَتْم، والرّان، والغِلاف، وغيرها.

ومَنْ كانتْ هذه حالَ قَلْبِهِ: فلا تنفعُ معه الموعظةُ ولا التّذكرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ البقرة: ٦ - ٧، وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۝٥٧﴾ الكهف: ٥٧.

وكما تكونُ هذه الصِّفاتُ للقلب؛ يكون (الوَقْر) للأُذُن، و(الغِشاوة) على العين مانِعيْنِ من التدبّر بالكُلّيّة.

وهذا الكتابُ ليس موجّهاً لهؤلاء، إنّما ما يَعنينا هنا هي العوائقُ التي **تُضعف** عَمَلَ القلبِ؛ فلا يَقوى معها على تدبُّرِ كتاب الله تعالى والانتفاعِ به، ومعلومٌ أنّ **التَّخْلِيَة قبل التَّحْلِيَة**؛ فلا مناصَ لقارئِ القرآن عن التّخَلِّي عن عوائقِ التدبُّر قبلَ التَّحَلِّي بمنافعِهِ.

ومن هذه العوائق:

أوّلاً: المعاصي والذّنوب:

[72] أنظر: لسان العرب، مادّة (قلب)، 687/1.
[73] صحيح الجامع الصّغير وزيادته، رقم (4801).

إنّ العبدَ حين "يكون مُصِرّاً على ذَنْبٍ، أو مُتَّصِفاً بِكِبْرٍ، أو مبتلىً ــ في الجملة ــ بهوىً في الدّنيا مُطاعٍ؛ فإنّ ذلك سببُ ظُلْمةِ القلب وصَدَئِهِ، وهو كالخَبَثِ على المرآة، فيمنعُ جلْيةَ الحقِّ من أنْ يتجلّى فيه، وهو أعظمُ حجابٍ للقلب، وبه حُجِبَ الأكثرون. وكلّما كانت الشّهواتُ أشدَّ تراكماً: كانت معاني الكلامِ أشدَّ احتجاباً، وكلّما خَفَّ عن القلب أثقالُ الدّنيا: قَرُبَ تجلّي المعنى فيه؛ فالقلبُ مِثْلُ المرآة، والشّهواتُ مِثْلُ الصّدأ، ومعاني القرآن مِثْلُ الصّوَرِ التي تتراءى في المرآة، والرِّياضةُ للقلب بإماطةِ الشّهوات مِثْلُ تصقيل الجَلاءِ للمرآة... وقد شَرَطَ الله عزّ وجلّ الإنابةَ في الفَهْم والتّذكير؛ فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ ق: ٨، وقال ــ عزّ مِن قائل ــ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ غافر: ١٣، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ الزمر: ٩؛ فالذي آثرَ غرورَ الدّنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب؛ ولذلك لا تنكشفُ له أسرارُ الكتاب"[74].

وإذا كانت الذّنوبُ ــ بشكل عامّ ــ تمنع من التّدبُّر، فإنّ هناك ذنوباً خاصّة تضادُّ التدبّرَ وتمنع منه، منها:

الكِبْر؛ قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝١٤٦﴾ الأعراف: ١٤٦.

ومنها: **الغِناءُ والاستماعُ له**؛ قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: "الغِناء يُنبتُ النِّفاقَ في القلب كما يُنبتُ الماءُ الزّرْعَ، والذِّكْرُ يُنبتُ الإيمانَ في القلب كما يُنبتُ الماءُ الزّرْعَ"[75].

---

[74] إحياء علوم الدّين، 258/1.

[75] موسوعة ابن أبي الدّنيا: رقم (30)، 36/3. ورواه مرفوعاً بلفظ: **"الغِناء يُنبتُ النِّفاقَ في القلب كما يُنبتُ الماءُ البقلَ"**، رقم (38)، 37/3.

وقال ابنُ القيِّم رحمهُ الله تعالى: "فاعلمْ أنّ للغِناءِ خواصَّ لها تأثيرٌ في صَبْغِ القلب بالنِّفاق ونَبَاتِهِ فيه كنباتِ الزّرْع بالماء.

فمن خواصِّه: أنّه يُلهي القلبَ ويَصُدُّهُ عن فَهْم القرآن وتدبّرِهِ والعملِ بما فيه؛ فإنّ القرآنَ والغناءَ لا يجتمعانِ في القلب أبداً؛ لِمَا بينَهما من التّضادّ"[76].

و الذي يوضحُ ذلك: "أنّك لا تجدُ أحداً عُنِيَ بالغناءِ وسماعِ آلاتِهِ إلاّ وفيه ضَلالٌ عن طريق الهدى عِلْماً وعَمَلاً، وفيه رغبةٌ عن استماعِ القرآن إلى استماعِ الغناء، بحيثُ إذا عَرَضَ له سَماعُ الغناء وسَماعُ القرآن عَدَلَ عن هذا إلى ذاك، وثَقُلَ عليه سَماعُ القرآن، وربّما حَمَلَهُ الحالُ على أنْ يُسْكِتَ القارئَ[77]ويستطيلَ قراءتَهُ، ويستزيدَ المغنِّيَ ويستقصرَ نَوْبَتَهُ، وأقَلُّ ما في هذا أنْ ينالَهُ نصيبٌ وافرٌ من هذا الذّمِّ، إنْ لم يُحِطْ به جميعُهُ.

والكلامُ في هذا مع مَنْ في قلبِهِ بعضُ حياةٍ يُحِسُّ بها، فأمّا مَنْ مات قلبُهُ، وعَظُمَتْ فِتْنَتُهُ؛ فقد سَدَّ على نفسِهِ طريقَ النّصيحة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١﴾ المائدة: ٤١ "[78].

فينبغي لِمَنْ أراد أنْ يتدبّرَ القرآنَ: أنْ يبتعدَ عن الذّنوب والمعاصي، وبخاصّةٍ الّتي تتعلّق بأدوات ووسائل التّدبُّر: القلبِ والسَّمعِ واللِّسانِ والبَصَر؛ **فاستخدامُ هذه الأدوات في الحرام يُعرِّضُها لعدم الانتفاع بها في الحقّ**[79].

والقرآن الكريم "كما أنّ ظاهرَهُ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾[80] مِن الأحداث، ولا تتلو الحائضُ ولا الجُنُبُ شيئاً من القرآن؛ فكذلك باطنُ معانيهِ لا ينالُهُ إلا القلوبُ التّقيّةُ النّقيّة، ولا يجدُ مَن في قلبِهِ كِبْرٌ وحَسَدٌ ونحوُ ذلك طَعْمَهُ وحلاوتَه، ولا يَقِفُونَ على أسرارِهِ وعجائبِه"[81].

---

[76] إغاثة اللّهفان في مصايد الشّيطان/ ابن القيّم الجوزيّة، ص439.
[77] أو يُغيّرَ القناةَ أو المحطّة الإذاعية!
[78] إغاثة اللّهفان في مصايد الشّيطان، ص426 – 427.
[79] أنظر: أفلا يتدبّرون القرآن؟/ أسماء بنت راشد الرّويشد، ص17.
[80] الآية (79) من سورة الواقعة.
[81] قاعدة في فضائل القرآن: شيخ الإسلام ابن تيميّة، ص67 بتصرّف يسير.

ثانياً: الانصرافُ عن القرآن الكريم إلى غيرِهِ من العُلوم:

كما هو المُشاهَدُ اليومَ مِن انصراف الكثير من طلبة العِلم إلى تعلّمِ الفقه والحديث وغيرها من العلوم الشّرعيّة؛ بحيث يهجرون تدبُّرَ القرآن الكريم والنَّظَرَ فيه[82]، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى: "وأمّا طلبُ حِفْظ القرآن: فهو مُقدّمٌ على كثيرٍ ممّا تُسمِّيه النّاس عِلْماً، وهو[83] إمّا باطلٌ أو قليلُ النّفْع، وهو[84] أيضاً مُقَدَّمٌ في التّعلُّم في حقِّ مَن يَريدُ أنْ يتعلّمَ عِلْمَ الدِّين من الأصول والفروع، فإنّ المشروعَ في حقِّ مثلِ هذا في هذه الأوقات أنْ يبدأ بحفْظِ القرآن؛ فإنّه أصْلُ علوم الدِّين،... والمطلوبُ من القرآن هو فَهْمُ معانيهِ والعملُ به، **فإنْ لم تكنْ هذه همّةَ حافظِهِ: لم يكنْ مِن أهل العِلْم والدِّين**"[85]، "وأمّا مَن تَعَبَّدَ بتلاوة الفِقْه فَتَعَبُّدُهُ بتلاوةِ القرآن أفضل، وتدبُّرهُ لمعاني القرآن أفضلُ مِن تدبُّرِهِ لكلامٍ لا يحتاج لِتدبُّرِهِ"[86].

ولّما ذكرَ ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى أنواعَ هَجْرِ القرآن الكريم، عَدَّ منها: "هَجْر تدبُّرِهِ و تَفَهُّمِهِ ومعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه"[87]؛ فالذي يقرأ القرآنَ الكريم مِن غير تدبُّرٍ ولا تفهُّمٍ يُخشى عليه يومَ القيامة أنْ يشملَهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ الفرقان: ٣٠، أعيذك ـــ وإيّايَ ـــ بالله تعالى مِن ذلك.

ثالثاً: اشتغالُ القلب بأحكام التِّلاوة:

فيكونُ اهتمامُهُ بإخراجِ الحروف مِن مخارجِها، والتّركيزِ على طُول المُدود والغُنّةِ وغيرها، والمبالغةُ في جميع ذلك؛ فإنّ القلبَ يتوجَّهُ ـــ حينئذٍ ـــ إلى الألفاظ دونَ أنْ يتجاوزَها إلى المعاني، ولعلّ أكثرَ مَنْ يعاني مِن هذا العائقِ: المشتغلونَ بتعلُّمِ أحكامِ تلاوة القرآن الكريم وتعليمها، الذين يُنظر إليهم ـــ عندَ عوامِّ المسلمين ـــ على أنّهم هم أهلُ القرآن دونَ غيرهم![88]؛ قال الحسنُ البصريّ رحمه الله تعالى: "أُنزلَ القرآنُ لِيُعملَ به، فاتّخذ النّاسُ تلاوتَهُ

---

[82] ليس مرادنا هنا التقليل من هذه العلوم، ولكنّها ـ على جلالتها ـ تبقى دون تدبّر القرآن الكريم في الأهميّة، أمّا الجمع بينها وبين التدبّر فهو الأكمل والأفضل بلا شكّ.

[83] أي: هذا الذي تُسميه النّاس علماً، فتنبّه!

[84] أي: حفظ القرآن الكريم.

[85] مجموع الفتاوى، 23/ 54 - 55.

[86] المصدر السّابق، 23/ 56.

[87] الفوائد، ص118.

[88] لا شكّ أنّ لهم الفضلَ والأجر، ولكنّ الإشكال يكمن في أنّ نقصرَ معنى (أهل القرآن) عليهم دون سواهم، كما هو حاصل للأسف.

عَمَلاً"[89]، وقد أوضح ابنُ الجوزيِّ رحمه الله تعالى معنى كلمة الحَسَنِ بقوله: "يعني أنّهم اقتصروا على التِّلاوة، وتركوا العملَ به"[90].

وقال ابنُ تيميّة رحمه الله تعالى وهو يوصي قارئَ القرآن: "ولا يجعلْ هِمَّتَهُ فيما حُجِبَ به أكثرُ النّاس مِن العلوم عن حقائق القرآن: إمّا بالوَسْوَسة في خُروجِ حروفِه، وتَرقيقِها، وتَفخيمِها، وإمالتِها، والنُّطْقِ بالمدِّ الطّويل والقصير والمتوسِّط، وغير ذلك؛ **فإنّ هذا حائلٌ للقلوب، قاطعٌ لها عن فَهْم مُرادِ الرّبِّ مِن كلامِه**"[91].

وليس المُرادُ ــ قطعاً ــ تَرْكَ تطبيقِ أحكامِ التِّلاوة، ولكنّ المقصودَ أنْ يكونَ ذلك في وِرْد التِّلاوة، لا في وِرْد التّدبُّر[92].

رابعاً: الزِّيادة عن الحدِّ في الطّعام:

فإنّ ذلك يجعل أداءَ العباداتِ ثقيلاً على العبد؛ لأنّ الشّيطانَ "يجري مِن ابنِ آدمَ مجرى الدّم: فالصَّومُ[93] يُضَيِّقُ مجاريَهُ و يَسُدُّ عليه طُرُقَه، والشَّبْعُ يُطَرِّقُها ويُوسِّعها، و مَنْ أكل كثيراً: شرب كثيراً؛ فنام كثيراً؛ فخسر كثيراً"[94].

خامساً: كَثْرةُ النّوْم، أو قِلّتُهُ:

فإنّ النّومَ الكثيرَ "يُميتُ القلبَ، ويُثْقِلُ البَدَنَ، ويُضيِّعُ الوقتَ، ويُورِثُ كَثْرةَ الغفلة والكسل"... "و نومُ أوّلِ اللّيل أحمَدُ وأنفعُ من آخِرِه، و نومُ وَسَطِ النّهار أنفعُ من طرَفَيْه، وكلّما قَرُبَ النّوم مِن الطّرفيْنِ قلَّ نفْعُهُ"[95].

ومن ناحيةٍ أخرى: فإنّ قِلّةَ النّوم وحِرْمَانَ النّفس مِن حَظِّها منه "يورثُ أمراضاً مُتْلِفَة، لا ينتفعُ صاحبُها بقلبِهِ ولا بَدَنِهِ معها.

---

[89] تلبيس إبليس : ابن الجوزي ، ص109 .
[90] المصدر السّابق .
[91] مجموع الفتاوى 50/16 .
[92] كما سيأتي بيانُهُ ، إن شاء الله تعالى .
[93] ويلحق به : تقليل الطعام ، ولو من غير صيام .
[94] مدارج السّالكين ، 493/1 .
[95] مدارج السّالكين ، 494/1 .

وما قام الوجودُ إلا بالعَدْل، فمِنْ اعتصم به فقد أخذ بِحَظِّهِ مِن مجامع الخير"[96].

[96] المصدر السّابق ، 495/1 .

التّطبيق العمليّ

- فَتِّشْ في قَلْبِك عن الأمراض المعنويّة التي يمكن أنْ تحولَ بينَك وبين تدبُّرِ القرآن الكريم، و يا حبّذا لو تُطالعُ بعضَ الكتب التي تُعينُك على ذلك، مثلَ كتاب (**طِبُّ القلوب**) لشيخ الإسلام ابن تيميّة، أو (**إغاثة اللّهفان في مصايد الشّيطان**) و (**الفوائد**) و (**الدّاء والدّواء**) لابن القيِّم الجوزيّة[97]، أو غيرها من الكتب.
- اعزمْ على الامتناعِ عن سماعِ الغناء نهائيّاً ــ إنْ كنتَ ممّن يفعل ذلك ــ أيّاً كانتْ المشاقُّ والصّعوبات، قال ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى: "إنّما يجد المَشَقّةَ في ترْكِ المألوفاتِ والعاداتِ مَنْ تركها لغير الله، أمّا مَنْ تَرَكَها ــ صادقاً مُخْلصاً مِن قلبهِ ــ لله؛ فإنّه لا يجد في تَرْكِها مَشَقّةً إلاّ في أوّلِ وَهْلة؛ **لِيُمْتَحَنَ أصادقٌ هو في تَرْكِها أم كاذبٌ؟! فإنْ صبر على تلك المَشَقّةِ قليلاً استحالتْ لذّة!**"[98].
- أكْثِرْ من الاستغفار في يومِكَ وليلتِكَ، ولا سيّما قبلَ قراءة القرآن الكريم؛ لعلّ اللهَ تعالى يفتحُ قلْبَك لمناجاتِه وتلقِّي كلامِهِ أحسنَ التّلقِّي، ولعلّهُ يفتحُ عليك ــ بِكَرَمِهِ سبحانه ــ مِن نَفَحات الفَهْم و نَسَمات الفِكْر ما تَقَرُّ بِهِ عينُك، ويرتجف لهُ قلبُك، ويَقْشَعِرُّ له بَدَنُك!
- اجعلْ لنفسِك قانوناً في مواعيد النّوم والاستيقاظ، حسبَ قدرتِكَ والتزاماتِكَ، وتذكّرْ أنّ الانضباطَ والاعتدالَ هما مِن صفاتِ المؤمن القويِّ.
- احرصْ على أنْ تتناولَ عشاءً خفيفاً، خصوصاً إنْ كان عندَك زيادةٌ في الوزْن؛ لإنّ الأكلَ الكثيرَ ليلاً يُثْقِلُ البَدَنَ و يُبَلِّدُ الفِكْر!

---

[97] على المستوى الشّخصيّ: لم أجدْ مِن العلماء الذين تكلموا في القلوب وأدوائها ودوائها ـ فيما قرأت ـ مَن يضارع ابنَ القيّم أو يدانيه؛ فرحمه الله تعالى برحمته الواسعة، وأجزل له العطاءَ والمثوبة.

[98] الفوائد: ابن القيّم الجوزيّة، 156.

المبحث الثالث

شُبُهاتٌ عن التّدبُّر

بعدَ أنْ تعرّفنا في المبحث السّابق على أهمِّ العوائق والعقبات التي تُعيق الإنسانَ عن تدبّر كتاب الله تعالى؛ حُقَّ لنا أنْ نتناولَ بالذِّكْر والتّحليل المختصر أهمَّ الشّبهات التي تحومُ حول التّدبُّر، والتي مِن شأنها ــ إذا لم يُبيَّنْ أمرُها و يُكشَفْ عَوارُها ــ أن تَحُولَ بين قارئ القرآن الكريم وبين التّدبُّر.

والفرقُ بين العوائق والشّبهات: أنّ العوائقَ تمنعك مِن التّدبُّر بالفعل في حال وجودها، أمّا الشّبهات فهي أشياءُ تمنع الإنسانَ من تدبُّرِ القرآن الكريم، على الرّغم مِن أنّها لا وجودَ لها في الحقيقة!

ومن هذه الشّبهات:

أوّلاً: شُبُهاتٌ عن القرآن الكريم نفسِه:

كاعتقادِ أنّ القرآنَ الكريم لا يتناول مشاكلَ العصر الحديث، وأنّه إنّما أُنزل لمعالجة واقعٍ كان موجوداً فقط في عصر نزولِهِ على النّبيِّ صلى الله عليه وسلم. وكذلك أنْ يُنظرَ إلى القرآن على أنّه كتابٌ يُقرأ لِنيلِ البركة فقط، أو للرُّقْية مِن السِّحْر والحَسَد، أو في المآتم وافتتاح المناسبات والاحتفالات الدِّينيّة وما شابهها، وغير ذلك من الاعتقادات التي فَصَلَتْ المسلمينَ عن كتابِ ربِّهم؛ لأنّ "أكثرَ النّاسِ لا يشعرون بدخولِ الواقع تحتَهُ[99] وتَضَمُّنِهِ له، ويظنّونَهُ في نوعٍ وفي قومٍ قد خَلَوا من قبلُ و لم يُعْقِبوا وارثاً، **وهذا هو الذي يَحولُ بين القلب وبين فَهْمِ القرآن**، ولَعَمْرُ الله[100] إنْ كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم مَنْ هو مِثْلُهُم أو شرٌّ منهم أو دونَهم، وتناولُ القرآنِ لهم كتناولِهِ لأولئك"[101]، "وربّما سمع بعضُهم قولَ مَنْ يقول مِن المفسِّرين: هذه نَزَلَتْ في عُبّادِ الأصنام، هذه نَزَلَتْ في النّصارى، هذه في الصّابئة،

---

[99] أي: تحتَ القرآن الكريم.
[100] قَسَمٌ معناه: أحلفُ ببقاء الله ودَوامه.
[101] مدارج السّالكين، 372/1 - 373.

فيظنّ الغُمْرُ[102] أنّ ذلك مختصٌّ بهم، وأنّ الحُكْمَ لا يتعدّاهم، وهذا مِن أكبر الأسباب التي تحولُ بين العبد وبين فَهْم القرآن والسنّة"[103].

ثانياً: الخوفُ مِن القول على الله تعالى بلا عِلْم:

فيمتنع المسلمُ عن تدبُّرِ القرآن الكريم تورُّعاً، وهو تورُّعٌ في غير مَحِلِّه، قال ابن هبيرة رحمهُ الله تعالى: "مِن مَكَايِدِ الشّيطان: تنفيرُهُ عبادَ الله مِن تدبُّرِ القرآن؛ لِعِلْمِهِ أنّ الهدى واقعٌ عند التّدبُّر، فيقول: هذه مخاطرة؛ حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلّم في القرآن تورُّعاً"[104]، "بل إنّ التّدبُّرَ في قولهِ تعالى (لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ)[105] يَدْخُلُ فيه المعنى العقليُّ الذي يُدركُهُ الإنسانُ بعقلِه"[106].

ويقول العلامة محمّد الشّنْقيطي رحمه الله تعالى: "إعْلَمْ أنّ قولَ بعضِ متأخّري الأصوليّينَ: إنّ تدبُّرَ هذا القرآن العظيم وتَفَهُّمَهُ والعملَ به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصّة... قولٌ لا مستندَ له مِن دليلٍ شرعيٍّ أصلاً. بل الحقُّ الذي لا شكّ فيه: أنّ كلَّ مَن له قدرةٌ مِن المسلمين على التعلُّم والتفهُّم، وإدراكِ معاني الكتاب والسنّة، **يجب عليه تعلُّمُها، والعملُ بما علم منهما**"[107]. ثمّ يُضيف قائلاً: "ولْتَعْلَمْ أنّ تَعَلُّمَ كتابِ الله وسنّةِ رسولهِ في هذا الزّمان أيسرُ منه بكثير في القرون الأولى؛ لِسهولةِ معرفةِ جميعِ ما يتعلّق بذلك، ... فكلُّ آيةٍ من كتاب الله قد عُلم ما جاء فيها عن النّبيِّ صلى الله عليه وسلم ثمّ عن الصّحابة والتّابعين وكبار المفسِّرين"[108].

ثالثاً: الخَلْطُ بين التّدبُّر والتّفسير:

وقد سبق بيانُ الفرقِ بينَهما، وأنّ شروطَ التّدبُّر أخَفُّ بكثيرٍ ممّا هو موجودٌ في التّفسير[109].

---

[102] الغُمْـر (بسكون الميم وضمّها): الرّجل الذي لم يجرّب الأمور. مختار الصّحاح/ أبو بكر الرّازيّ، مادّة (غ م ر)، ص480.
[103] تحفة الطالب والجليس/ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، ص65.
[104] الذيل على طبقات الحنابلة/ الحافظ ابن رجب، 156/2.
[105] يشير إلى قوله تعالى {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: 29].
[106] شرح مقدّمة التّفسير، ص9.
[107] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن/ الشيخ العلامة محمّد الأمين الشنقيطيّ، 459/7.
[108] المصدر السّابق، 466/7.
[109] راجعْ: المبحث الرابع من الفصل الأول .

والعجيب أنّك تجدُ كثيراً مِن عَوَامِّ المسلمين يجترأونَ على التّفسير، على الرّغم من أنّ ذلك لا يجوز إلاّ للعلماء المتخصِّصين، في حين أنّهم ـــ في الوقت نفسِهِ ـــ يُعرِضون عن تدبُّرِ القرآن الكريم، وهو واجبٌ عليهم!

رابعاً: اشتراطُ أنْ يكون المتدبِّرُ ضَليعاً في اللّغة العربيّة:

وهذا غيرُ صحيحِ البتّة؛ لإنّ أيَّ مسلمٍ يستطيع أن يُباشرَ عمليّةَ تدبُّرِ القرآن الكريم مِنْ غير إتْقانِ فنون اللّغة العربيّة، إذْ لو كان ذلك شرطاً في التّدبُّر؛ فماذا يفعلُ مَن لا يُجيدُ اللّغةَ العربيّةَ ـــ أصلاً ـــ مِن المسلمين مِن غير العرب ؟!.. أم إنّنا سنقول له: (أنت مرفوعٌ عنك القلمُ في مسألة التّدبُّر!.. لا يا إخوتي، هذا غيرُ صحيحٍ.

وعلى الرّغم مِن ذلك، فإنّه لا بدّ مِن التّأكيد على أهميّة دَوْر اللّغة العربيّة في عمليّة التّدبُّر؛ لإنّ مَن له معرفةٌ بعلوم اللّغة المختلفة ـــ من النّحو والصّرْف والبلاغة وغيرها ـــ يَفهمُ من كلام القرآن ما لا يَفهمُهُ غيرُه؛ لأنّ القرآنَ الكريم نزل بِلُغَةِ العرب، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ يوسف: ٢، وقال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ النحل: ١٠٣، فكلّما زادتْ معرفةُ مُتدبِّر القرآنِ باللّغة العربيّة: زادَ معها فَهْمُهُ وتدبّرُهُ لآيات الكتاب العزيز[110].

والتّبحُّرُ في علومِ اللّغة العربيّة شَرْطٌ في مَنْ يتعرّض لتفسير القرآن الكريم ـــ كما مرَّ بنا سابقاً ـــ لكنّه ليس شرطاً في تدبُّرِهِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ القمر: ١٧، أي: "سَهَّلْنا لَفْظَهُ ويَسَّرْنا معناهُ لِمَنْ أرادَه؛ لِيتذكّرَ النّاس"... "فهل مِن متذكّرٍ بهذا القرآن الذي قد يَسَّرَ اللهُ حِفْظَهُ ومعناهُ؟!"[111]. ونقل البخاريّ عن الإمام الورّاق رحمه الله تعالى قولَهُ في تفسير هذه الآية: "هل مِنْ طالبِ عِلْمٍ فَيُعَانَ عليه ؟!"[112]، أي: أينَ الذي يريدُ طَلَبَ العِلْم من القرآن؟! فَلْيُقْبِلْ على القرآن؛ وسَنُعِينُهُ على فَهْمِهِ وتدبّرِه.

---

[110] فاللغة العربية هي من علوم الآلة كما هو معلوم، وعلوم الآلة تمثل المفتاح والمدخل إلى علوم الغاية؛ فهي كمفتاح العلبة الذي تستخدمه لتخرجَ ما بها من طعام وتنتفعَ به!

[111] تفسير ابن كثير، 7/ 442 – 443.

[112] أنظر: المصدر السابق، 443/7.

وممّا يُوضِّح ذلك ويُبيِّنُهُ أنّ "كثيراً مِن الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة لا يُحتاجُ في معناها إلى عِلْم النّحو وإلى عِلْم الأصول، بل في الأفهام والطِّباع والعقول ما سارعَ به إلى معرفة المرادِ منها عند قَرْعِها الأسماعَ، من دون نظرٍ إلى شيءٍ مِن تلك القواعد الأصوليّة والأصول النّحويّة؛ فإنّ مَن قرعَ سَمْعَهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ١١٠ يفهمُ معناهُ مِن دون أنْ يعرفَ أنّ (**ما**) كلمةُ شَرْطٍ و (**تُقَدِّموا**) مجزومٌ بها لأنّه شَرْطُها و (**تجدوهُ**) مجزومٌ بها لأنّه جزاؤهُ".. " فيا ليتَ شعري! ما الّذي خَصَّ الكتابَ والسُّنّةَ بالمنع عن معرفة معانيها، وفَهْمِ تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها؛ حتّى جُعلتْ معانيها كالمقصوراتِ في الخيام قد ضُربت دونَها السِّجُوفُ[113]، ولم يبقَ لنا إليها إلاّ ترديدُ ألفاظِها والحروف؟!". [114]

خامساً: أجْرُ حِفْظِ القرآنِ الكريم أكبرُ من أجْرِ تدبُّرِهِ:

لو أنّك رأيتَ رجليْنِ: الأوّل: حافظٌ للقرآن من غير تدبُّرٍ، والآخَر: غيرُ حافظٍ للقرآن ولكنّه يُداوم على تدبُّرِهِ، ثمّ سألتُكَ: "أيُّ الرّجليْنِ ــ في رأيك ــ أعظمُ أجْراً عندَ الله تعالى؟!" أو "أيَّ الرّجليْنِ تودُّ لو تكونَ؟!"... أنا متأكِّدٌ ــ بِصِدْقٍ ــ أنّ احتمالَ أنْ تختارَ الرّجلَ المتدبِّرَ شِبْهَ معدوم! وذلك بسبب انتشار هذه الشّبهة ــ للأسف ــ، والّتي لا صِحّةَ لها أبداً!

وقد تقول: ولكنّ القرآنَ الكريم مُتَعَبَّدٌ بتلاوتِهِ، وفي تلاوةِ كلِّ حرْفٍ منه حسَنَةٌ، فكيف لو حَفِظَهُ المسلم؟! فأقول لك: "إنّ القرآنَ له جهتان: جهةُ تعبُّدٍ، و جِهةُ عَمَلٍ وتنفيذ، فالأولى قد تحصل بأنْ يتعبّدَ الإنسانُ لله عزّ وجلّ بقراءة القرآن، لكنّ الثّانيةَ الّتي نزل مِن أجلِها ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ ص: ٢٩ مفقودةٌ في حقِّ مَن لم يعرفْ معنى القرآنِ و لم يتّعِظْ به"[115].

إنّ حفْظَ القرآنِ الكريم له أجْرٌ عظيم بلا شكٍّ، وهو نورٌ للمسلم في الدّنيا والآخرة، ولكنّ أجرَ التّدبُّر أكبرُ منه وأعظم؛ لأنّ تدبُّرَ القرآن هو غايةٌ[116]، وحِفْظَ القرآنِ وسيلةٌ إلى هذه

---

[113] السِّجوف: السِّتور، واحدها: السِّجْف، وهو: السِّتْر. أنظر: لسان العرب، مادّة (سجف)، 144/9.
[114] إرشاد النّقاد إلى تيسير الاجتهاد/ محمّد بن إسماعيل الأمير الصّنعانيّ، ص36 – 37.
[115] شرح مقدّمة التفسير، ص24-25.
[116] كما سبق بيانه في الفصل الأول، المبحث الثالث.

الغاية؛ فكيف يكونُ أجرُ الوسيلة أكبرَ مِن أجْرِ الغاية؟!! وقد "قال بعضُ العلماء: إنّ مَن عَمِلَ بالقرآنِ فكأنّهُ يقرؤهُ دائماً وإنْ لم يقرأهُ، و مَن لم يعملْ بالقرآنِ فكأنّهُ لم يقرأهُ وإنْ قرأهُ دائماً"[117]، وقد تقدّم قولُ ابنِ تيميّة رحمه الله تعالى: " المطلوبُ مِن القرآن هو فَهْمُ معانيهِ والعملُ به، فإنْ لم تكنْ هذه هِمّةَ حافظِهِ: لم يكنْ مِن أهل الدِّين"[118].

وقد "ثبت عن بعضِ السَّلَف أنّه قال: تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِن عبادة ستِّينَ سنة"[119]، فما بالُك لو كان هذا التّفكُّرُ في كلام الله تبارك وتعالى؟!

" وقد اختلف النّاسُ في الأفضل مِن (التّرتيل وقِلّة القراءة)، أو (السّرعة مع كثرة القراءة): أيُّهما أفضل؟ على قولَيْنِ.

فذهب ابنُ مسعود وابنُ عبّاس رضي الله عنهما وغيرُهما إلى أنّ الترتيلَ والتّدبُّر مع قلّة القراءة أفضلُ مِن سرعة القراءة مع كثرتها. واحتجّ أربابُ هذا القولِ بأنّ المقصودَ مِن القراءة فَهْمُهُ وتدبُّرُهُ، والفقهُ والعملُ به، وتلاوتُهُ وحفظُهُ وسيلةٌ إلى معانيه"... "قالوا: ولأنّ الإيمانَ أفضلُ الأعمال، وفَهْمُ القرآن وتدبُّرُهُ هو الذي يُثْمِرُ الإيمان، وأمّا مجرّدُ التِّلاوة مِن غير فهمٍ ولا تدبّر، فيفعلُها البرُّ والفاجر، والمؤمنُ والمنافق، كما قال النّبيُّ صلى الله عليه وسلم: "ومَثَلُ المنافقِ الذي يقرأ القرآن، كمثل الرّيحانة، ريحها طيِّب، وطعمها مرّ"[120].

"والنّاس في هذا أربعُ طبقاتٍ: أهلُ القرآنِ والإيمان، وهم أفضلُ النّاس. والثّانية: مَن عَدِمَ القرآنَ والإيمان. الثّالثة: مَن أوتي قرآناً، و لم يؤتَ إيماناً. الرّابعة: مَن أوتي إيماناً و لم يُؤتَ قرآناً. قالوا: فكما أنّ مَن أوتي إيماناً بلا قرآنٍ أفضلُ ممّن أوتي قرآناً بلا إيمان؛ فكذلك مَن أوتي تدبّراً وفَهماً في التِّلاوة أفضلُ ممّن أوتي كثرةَ قراءةٍ وسرعتِها بلا تدبُّر. قالوا: وهذا هَدْيُ النّبيِّ صلى الله وعليه وسلم؛ فإنّه كان يُرتِّلُ السّورةَ حتّى تكونَ أطولَ منها، وقام بآيةٍ حتّى الصّباح.

---

[117] عون المعبود على سنن أبي داود/ العلاّمة محمّد أشرف بن أمير العظيم آبادي، ص672.
[118] الفتاوى، 54/23 - 55.
[119] مفتاح دار السّعادة، ص515.
[120] تقدّم تخريجه.

وقال أصحابُ الشّافعيِّ رحمه الله: كثرةُ القراءة أفضل، واحتجّوا بحديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن قرأ حرْفاً مِن كتاب الله، فلهُ به حَسَنة، والحسنةُ بعشر أمثالِها، لا أقول: ألم حرْفٌ، ولكنْ: ألِفٌ حرْفٌ، ولامٌ حرْفٌ، وميمٌ حرْفٌ". قالوا: ولأنّ عثمان بنَ عفّان قرأ القرآنَ في ركعةٍ، وذكروا آثاراً عن كثيرٍ مِن السّلف في كثرة القراءة.

والصّوابُ في المسألة أنْ يُقال: إنّ ثوابَ قراءةِ التّرتيل والتّدبّر أجَلُّ وأرفعُ قدْراً، وثوابَ كثرةِ القراءة أكثرُ عدداً؛ فالأوّل: كَمَن تَصَدَّقَ بجوهرةٍ عظيمة، أو أعتق عبداً قيمتُهُ نفيسةٌ جدّاً، والثّاني: كَمَن تَصَدَّقَ بعددٍ كثيرٍ مِن الدّراهم، أو أعتق عدداً مِن العبيد قيمتُهُم رخيصة"[121].

ولربّما أثيرُ فيك العَجَبَ ــ قارئي الكريم ــ حين أخبرك أنّ أبا بكر الصِّدِّيق وعمرَ بن الخطّاب رضي الله تعالى عنهما ــ وهما خيرُ الأمّة بعدَ نبيِّها صلى الله عليه وسلم ــ انتقلا إلى الرّفيق الأعلى وهما لا يحفظانِ القرآنَ الكريم كلَّه؟!.. أمّا مِن حيثُ تّدبُّرُهُما للقرآن الكريم: فانظر ــ إنْ شئتَ ــ إلى موقف أبي بكرٍ يومَ وفاةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويومَ الرِّدّة، و موقفِ عمرَ حين رفضَ تقسيمَ العراق؛ يتّضحْ لك عُمْقُ فِقْهِهما المستمدِّ مِن تدبُّرُهِما لكتابِ الله تعالى وسُنّةِ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم!

بل إنّ عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: "كان الفاضلُ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في صَدْر هذه الأمّة لا يحفظ القرآنَ إلا السّورةَ أو نحوَها، ورُزقوا العملَ بالقرآن، وإنّ آخِرَ هذه الأمّةِ يقرأون القرآنَ، منهم الصّبيُّ والأعمى، ولا يُرزقون العملَ به"[122].

فَحِفْظُ النّصوص القرآنيّة شيءٌ، وتدبُّرُها وفَهْمُها شيءٌ آخر!

وأخيراً: ففي عصرنا هذا لا تشكو أمّتنا مِن قِلّة عدد حُفّاظِ القرآن الكريم، في حينِ أنّ حالَها لا يخفى عليَّ وعليك!

---

[121] زاد المعاد، ص337-339.
[122] الجامع لأحكام القرآن، 40/1.

ومِن نافلة القول أنْ أذكِّرَ بأنّ الأفضل والأكمل ممّا سبق: الجمعُ بين الأمريْنِ معاً: الحفظِ والتّدبّر، كما كان السّلفُ الصّالح رضي الله تعالى عنهم.

التّطبيق العمليّ

- تعاملْ مع القرآن الكريم ــ ابتداءً من هذه اللّحظة ــ على أنّ فيهِ الشِّفاءَ الكامل لأدوائك والعلاجَ النّاجع لمشاكلك، وأنّه هو النّبراسُ الذي يُنير لك دربَك ويُضيء لك حياتَك.
- اقْتَنِ كتاباً في علم النّحو البسيط، أو قمْ بتحميلِهِ من الانترنت، مثل كتاب (**الآجرّوميّة**) لابن هشام، أو ــ في الأقل ــ حاولْ مذاكرةَ ما تعلمتَهُ من قواعدَ نحويّةٍ في سنواتِ دراستِك الابتدائيّة والثّانويّة، وتذّكرْ أنّ ما ستقرأُهُ الآنَ بهدف الفَهْم سيكون أسهلَ ممّا كنتَ تقرأُهُ أيّامَ الدِّراسة، حين كان هدفُكَ النّجاح فقط!
- ضعْ لنفسِك خطّةً لتدبّر القرآن الكريم، و بموازاتها خطّةً أخرى للحفْظ، ولا يهمّ متى تنتهي كلٌّ منهما، المهمّ: أنْ تضعَ الخطّتيْنِ بمنطقٍ ووضوح حسبَ إمكاناتِك و وَقتِك، وتلتزمَ بالسَّيْر عليهما، ولا يضرُّك بعدَ ذلك ــ إنْ شاء الله تعالى ــ أنْ متَّ في أوّل الطّريق أو وسطَهُ أو آخرَه! لأن نيّة المرء خيرٌ من عمله.

الفصل الثالث:

هيَّا نتدبَّر!

ها قد وصلنا إلى الغاية المرجوّة من هذا الكتاب، وهي: تدبُّرُ القرآن الكريم بشكلٍ عمليٍّ. وكلُّ ما سبقَ هو توطئةٌ له وتمهيد؛ ولهذا جاء هذا الفصل أكبرَ مِن سابِقَيْهِ، بل قد تجاوزتْ صفحاتُهُ نصفَ صفحاتِ الكتابِ بمجموعِهِ! وهو ما حرصتُ عليه عند كتابتي لهذه المادّة[123]؛ فلا فائدة تُرجى من المباحث النّظريّة، ما لم تُشفع بمباحثَ عمليّةٍ وخطواتٍ تدريبيّةٍ تُعِينُ قارئَ القرآن على الممارسة والتّطبيق.

وعلى الرّغم من أنّ الفصليّنِ السّابقيْنِ قد تضمّنا بعضَ التّطبيقاتِ العمليّة، كلٌّ حسبَ موضِعِه، إلا أنّنا سنخطو خطوةً أوسعَ في هذا الفصل، الذي ستجد فيه بعدَ كلِّ مبحثٍ مِن مباحثِهِ: **تدريباً** تُمارِسُ فيه ما تعلَّمْتَهُ في المبحثَ الذي قرأتَهُ تَوّاً؛ ليأخذَك هذا الكتابُ خطوةً بخطوةٍ في رحلة التّدبُّر المباركة؛ لأنّ مَن فَهِمَ معنى التّدبُّر وأهمّيّتَهُ، وتحقّقتْ عندَهُ شروطُهُ وانتفتْ عنه موانِعُهُ، وزالتْ عن عيونِهِ الشّبهاتُ الّتي كانتْ تحوم حولَهُ: لم يبقَ أمامَهُ إلاّ البَدْءُ بالرِّحلة، بعدَ التّوكُّل على الله تعالى !

فالمطلوبُ منك ــ قارئي الكريم ــ الاسترخاءُ، وقراءةُ الصّفحاتِ التّالية بتمعُّنٍ وتركيز، و **أعدُكَ بأنّك إذا طَبَّقْتَ ما فيها من نصائحَ وتدريباتٍ؛ فإنّ علاقتَك مع القرآن الكريم ستتغيّرُ تغيُّراً جذريّاً**، بإذنِ الله تعالى وتوفيقِهِ.

[123] أعني بذلك حرصي على التّركيز على المباحث العمليّة، وليس مجرّد الإطالة.

المبحث الأول:

حقيبة المتُدبِّر

بعدَ أنْ تسلّحنا بالشّروط المطلوبة للتّدبُّر، واجتنبْنَا العوائق ـــ أو قلّلْنا منها قدْرَ المستطاع ـــ، وبعدَ أنْ نفيْنَا عن تفكيرنا الشّبهاتِ والوساوسَ التي حامتْ زمناً حولَ التّدبُّر وآن الوقتُ لإزالتِها، بعدَ ذلك كلِّه، لم يبقَ إلاّ أنْ نمارسَ التّدبُّرَ بشكل عمليّ.

وكما أنّ أصحابَ المِهَنِ يستعينون بحقائبَ يضعونَ فيها الأدواتِ الضّروريّةَ التي يحتاجونها في مزاولةِ أعمالِهم، ولا يمكنهم الاستغناءُ عنها؛ فكذلك مُتدبِّرُ القرآن الكريم: لا بدّ له من حقيبةِ أدوات، تحملُ له ما يستعينُ به على أداءِ مهمّتِهِ.

وحقيبة المتدبِّر هذه تحتوي على شيئيْنِ اثنيْن فقط، هما: **كتابٌ في التّفسير، وكتابٌ في اللّغة.**

وقد تعلّمْنا ممّا سبق: أنّ الغرضَ مِن تدبُّرِ القرآن الكريم هو فَهْمُهُ وأخْذُ العِبْرة منه، وما ينتج عن ذلك مِن أثرٍ في السّلوك، وتعلّمْنا ـــ كذلك ـــ أنّ تدبُّرَ النّصِّ هو شيءٌ آخرُ غيرُ تفسيرِهِ، ولكنّ ما يجدر التّنبيهُ إليه في هذا المقام أنّ التّدبُّرَ لا يكونُ إلا بعدَ فَهْم معاني الألفاظِ المقروءة ابتداءً، وفَهْمِ مُلابَسات النّصِّ من حيثُ سببُ نزولِهِ و وَقتُ نزولِهِ وتفسيرُهُ؛ "لأنّ معرفةَ سببِ النّزول تُعينُ على فَهْمِ الآية؛ فإنّ العِلْمَ بالسّبب يُورِثُ العِلْمَ بالمُسبَّب"[124]، لذلك؛ صار لِزاماً قبلَ الشّروعِ في تدبُّرِ نصٍّ محدَّد: أنْ نقرأَ تفسيرَ هذا النّصِّ من كتابٍ مِن **كتبِ التّفسير**، ثمّ نستخرجُ مِن أحد **كتبِ اللّغة** معانيَ الكلمات التي نحتاج إلى معرفة معناها، وبعدَ ذلك: نكون جاهزينَ للبَدْءِ في تدبُّرِ النّصِّ؛ لإنّ "على متدبِّرِ كتاب الله أنْ يبحثَ في معاني الكلمات الواردة فيه بحثاً لُغويّاً، وكيف استعملها العرب، وكيف استُعملتْ وقتَ نزول القرآن، لا وفقَ ما تطوّرتْ إليه الكلمةُ بعدَ انقطاع الوحي؛ فإنّ ذلك مِن شأنِهِ أن يساعدَ ـــ بتوفيقِ الله ـــ على فَهْم المعنى، وأنْ يكونَ تدبُّرُهُ أقربَ إلى الصّواب"[125].

---

[124] مقدّمة التّفسير، ص46.

[125] ليدبّروا آياته: المجموعة الثانية، ص331.

وإنّ "النّاظر في كلمات القرآن ــ مِن جهة الوضوح وعَدَمِهِ ــ يمكنُهُ جعلُها على ثلاثِ مراتب:

المرتبة الأولى: كلماتٌ مشهورة واضحة المعنى والدّلالة، مثل: النّاس، الشّمس، القمر، البحر، الشّجر، السّمع، البصر، النّور، اليتيم، الفقير.

المرتبة الثّانية: كلماتٌ مُتداوَلة واضحةُ المعنى الظّاهر، لكنّ مَن يتأمّلُ هذه الكلماتِ في كتب التّفسير و دواوين اللّغة سيجد أنّها تنطوي على عددٍ من المعاني البديعة، التي لم تَخْطُرْ له على بال، وهي معانٍ صحيحةٌ دَلَّ عليها السِّياق... ومِن أمثلة هذه الكلمات: تَؤُزُّهُم، حَرْثُكُم، وشَدَدْنا أسْرَهم، فأجاءَها المخاض، كُوِّرَتْ، كُشِطَتْ، كالدِّهان، الصّمد، التّغابن، رَفْرَف، عبقريّ، أحقاباً، ...

المرتبة الثّالثة: كلماتٌ غامضة بالنِّسبة لكثيرٍ من النّاس، لا يُدْرَكُ معناها إلا بمراجعة كتب التّفسير واللّغة، مثل: انكدرتْ، مُقْمَحون، زَرَابِيّ، الوَتين، حَمِئَة، التّرائِب، زَنيم، أبّاً، قَضْباً، أمْشَاج، جَدُّ ربِّنا، سائِحات، لَكَنُود، ...

ومِن هذه الكلمات ــ بعدَ المراجعة ــ ما يُلحَق بالمرتبة الأولى، ومنها ما يُلحَق بالثّانية.

إذا تَبيَّنَ هذا فيَبقى عندَنا سؤالٌ كبير، وهو: كيف يصل طالبُ فَهْمِ كتابِ الله تعالى إلى معرفة دلالة الكلمة؟

والجواب: أنّ معرفةَ دلالة الكلمة يكون بِعَرْضِ الكلماتِ التي تَتَدبّرُ آياتِها على المراتب الثّلاث السّابقة، ومعرفةِ درجتها مِن الوضوح والغموض، فعندما تَمُرُّ بكلمةٍ في كتاب الله، وتدرك أنّ فيها شيئاً مِن الغموض، أو أنّها توحي بأنّ البحثَ فيها قد يُفيدُ في معرفة دلالة هذه الكلمة بشكلٍ أكبرَ وأوضح؛ فعندَها نرجع إلى المصادر التي تساعد في بيان هذه الدلالة إنْ وُجدت"[126].

[126] المراحل الثّمان لطالب فهم القرآن/ عصام العويّد، ص57 – 58.

والآن، لِنقمْ بتطبيق الكلام السّابق بشكل عمليّ:

النّصّ القرآنيّ المُرادُ تدبّرُهُ هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ الإسراء: ٣٦.

نقرأ ـــ أوّلاً ـــ تفسيرَ هذه الآية:

جاء في تفسير الآية "عن ابن عبّاس يقول: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ): لا تقلْ. وقال العوفيّ عنه: لا تَرْمِ أحداً بما ليس لك به عِلْم. وقال محمّد ابن الحنفيّة: يعني شهادةَ الزُّور"... "وقوله (كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ) أي: هذه الصِّفات مِن السّمْع والبصر والفؤاد (كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا) أي: سيُسأل العبدُ عنها يومَ القيامة، وتُسألُ عنه عمّا عَمِلَ فيها"[127].

والآن: نبحث في كتب اللّغة عن معنى كلميْ (**تَقْفُ**) و (**الْفُؤَادَ**)[128]، أمّا باقي الكلمات فمعناها واضحٌ معلومٌ للجميع:

فنجد أنّ كلمة (تَقْفُ) مأخوذةٌ مِن (القَفَا)، وهو: مُؤَخَّرُ العُنُق[129]، في حين نجدُ أنّ كلمة (الْفُؤَادَ) مُشتقّةٌ مِن "فَأَدَ الخُبْزَةَ، أي: شَواها، والفَئِيد: ما شُويَ على النّار"[130]، "والفؤاد: القَلْبُ لِتَفَؤُّدِهِ وتَوَقُّدِهِ"[131]، و "الفؤادُ كالقلبِ، لكنْ يُقال له: فؤادٌ إذا اعْتُبِرَ فيه معنى التّفَؤُّد، أي: التّوَقُّد"[132].

وأخيراً، بعدَ أنْ قرأنا تفسيرَ الآيةِ الكريمة، وعرفنا معانيَ كلماتِها من المعاجِم اللّغويّة؛ نمارسُ عمليّة التّدبُّر:

فصار معنى (**لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**): لا تَتْبَعْ أثَرَ ما لا تَعلمُ، ولا تمشِ وراءَ أشياءَ لا عِلْمَ لك بها.

---

[127] أنظر: تفسير ابن كثير، (69/5).
[128] نعلم جميعاً أنّ (الفؤاد) هو القلب، ولكنّنا نبحث في كتب اللّغة لنعرفَ سبب اختيار لفظة (الفؤاد) دون لفظة (القلب).
[129] أنظر: مختار الصِّحاح، مادّة (قفا)، ص547.
[130] أنظر: لسان العرب، مادّة (فَأَدَ)، 328/3.
[131] مختار الصِّحاح، ص104.
[132] المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهانيّ، ص386.

ولعلّنا فهمْنا الآنَ سببَ المجيء بكلمة (الفؤاد) في هذه الآية دونَ كلمةِ (القلب):

فلمّا كان سِياقُ الآيةِ في نَهْيِ المسلم عن تَتَبُّعِ ما لا عِلْمَ له به، جاءتْ كلمةُ (الفؤاد)؛ لتعطيَ معنى (غَلَيَانِ القلب وتَوَقُّدِهِ) عندَ مَنْ يَقْفو ما ليس له به عِلْم، أو نتيجةَ ما اقتفاهُ! في حين أنّه "يُعَبَّرُ بالقلبِ عن المعاني التي تختصّ به، من الرُّوحِ والعِلْمِ والشّجاعةِ وغير ذلك"[133].

ثمّ هناك مسألةُ أخرى، وهي: تسلسلُ التّرتيب في الحَوَاسِّ والأعضاء: **(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)**، فما سبب تقديم السّمْع على البَصَر، ولِمَ قُدِّما ـــ بِدَوْرِهما ـــ على الفؤاد؟!

إنّ السِّياقَ في الآية يتكلّم عن اقتفاءِ الأخبار والمعلومات، وما نسمعُهُ من أخبارٍ أكثرُ ممّا نراهُ، وما نراهُ أكثرُ ممّا تتعلّقُ بهِ قلوبُنا؛ فليس كلُّ شيءٍ نسمعُهُ أو نراهُ تنشغلُ به قلوبُنا، أو تهتمّ له؛ فجاء التّرتيبُ بحسَبِ أهميّة الحاسّة في اقتفاء الأخبار التي هي سببُ سَوْقِ الآية الكريمة: السَّمْع، ثمّ البَصَر، ثمّ الفؤاد... والله تعالى أعلم.

هذا ما وصل إليه تدبّري و مَبْلَغُ عِلْمي، وأترك لك ـــ قارئي الفاضل ـــ إضافةَ المزيد من الخواطر التّدبّريّة!

وأودّ ـــ في هذا المقام ـــ أنْ أقدِّمَ لقارئي الكريم "تجربةً عمليّةً، واقتراحاً مُخْلصاً، في صددِ الصِّلة الشخصيّة المباشَرةِ بالقرآن الكريم، والعلاقةِ القويّة معه، وتذوُّقِهِ والتّجاوبِ معه، والاستفادةِ منه أكثرَ فأكثر، والتّقرُّبِ به إلى الله، والرُّقِيِّ عن طريقهِ في مدارج التّوفيق، وهو:

أنّه ينبغي أنْ يُشتَغَلَ بالقرآن ـــ قَدْرَ المستطاع ـــ مباشَرةً بدون وساطة، ويُتلى مَتْنُهُ أكثرَ ما يمكن، ويُستمتعَ بقراءتِه، ويُتَذوَّقَ ويُتَدبَّرَ في معانيه، فإذا كان القارئُ قد حصَّل من العربيّة ما يحتاج إليه، وتَمَكَّنَ من فَهْم القرآن مباشرةً؛ فعليه بقراءتِهِ وفَهمِهِ مباشرةً ـــ وإلاّ فَلْيرجعْ إلى الحواشي والملاحظاتِ التّفسيريّة المختصرة ـــ، ويحاولُ تلاوةَ القرآن الكريم، وفَهْمَهُ وتدَبُّرَهُ وتذوُّقَهُ من دون اعتمادٍ وتعويلٍ دائمٍ على تفسيرٍ إنسانيّ، ومراجعةٍ كثيرةٍ لكتب التّفاسير، ويكتفي بذلك إلى مدّةٍ ما من الزّمن، ويحمد اللهَ تعالى على ما يفتحُهُ عليه من فهم

[133] المفردات في غريب القرآن : ص411 .

كتابِه، وما يُوفَّقُ إليه من تلاوتِه، حَمْداً كثيراً"... "بل لقد أثبتتْ التّجارب أنّ القارئَ يتأثّر أحياناً بتفُّهمِ إنسانٍ ألمعيٍّ فاضلٍ وتفسيرِهِ ـــ وقد يكون مُعجَباً به مِن قلبِهِ ـــ أكثرَ ممّا كان ينبغي له أنْ يتأثّرَ بالكلام الإلهيِّ الأصيل، ويتسرّبُ إلى ذهنِهِ وشعورِهِ ـــ أو من منفذٍ من المنافذ المختلفة ـــ أنّه (لولا هذا التّفهُّمُ والتّفسيرُ؛ لم يَظهرْ هذا الجمالُ القرآنيُّ الذي أتمناهُ، و لم تَتَجَلَّ لي عظَمَتُهُ وجلالُهُ وروعتُهُ)، وأقلُّ ما يَتمكّنُ من خاطِرِهِ هو أنّه يتعوّدُ على النَّظَر إلى القرآن الكريم بمنظارِ تفسيرٍ إنسانيٍّ خاصّ، أو قُلْ: بمنظار أحد المفسِّرينَ والشُّرّاحِ، أو القادةِ والدّعاة"[134].

[134] المدخل إلى الدراسات القرآنيّة/ الإمام أبو الحسن النّدويّ، ص150.

التّطبيق العمليّ

- اقْتَنِ تفسيراً للقرآن الكريم يعتمد على التّفسير بالمأثور، كتفسير **الطبريّ** أو تفسير **ابن كثير**، رحمهما الله تعالى.
- اقْتَنِ كتاباً في اللّغة، مثل **لسان العرب** أو **مختار الصِّحاح**، وهذه معاجمُ لغويّةٌ عامّة، وهناك كتبٌ اختصّتْ بمفردات القرآن الكريم، مثل كتاب **المفردات في غريب القرآن** للرّاغب الأصفهانيِّ رحمه الله تعالى، و**تفسير غريب القرآن** لابن قتيبة رحمه الله تعالى.
- إنْ تَعَذَّرَ عليك شراءُ ما ذُكر مِن الكتب: فيمكنك أنْ تقومَ بتحميلِ ما تحتاجُ إليه على حاسوبِك الخاص ـــ أو هاتفك المحمول ـــ من الإنترنت من مواقع مجانيّةٍ كثيرة[135]، فقط إحرصْ على أنْ تكونَ النّسخةُ مُحَقّقةً، وبصيغة (pdf)؛ فذلك أفضلُ وأضمنُ لوضوحِ الكلمات و يُسْرِ قراءتِها، ويجعلك تقرأ الكتاب كأنّه بين يديْك !

[135] يمثل موقعا (**المكتبة الوقفيّة للكتب المصوّرة**) و (**صيد الفوائد**) مثالاً جيداً لهذا الغرض؛ حسب تجربتي الشّخصيّة.

تدريب

تدبّرْ قولَهُ تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ النور: ٣٧، مستفيداً ممّا تعلّمتَهُ في هذا المبحث.

أسئلة تساعدك على تدبّرِ الآية:

- ما هو (اللّهْو)؟.. وما معنى (تَتَقَلَّبُ)؟
- إنّ البيعَ هو من لوازمِ التّجارة؛ فلا توجد تجارةٌ بلا بيعٍ، فلماذا خُصَّ بالذِّكْر هنا؟!
- لا يوجد بيعٌ إلاّ ويُقابِلُهُ شِراء، فلماذا ذُكِرَ البيعُ فقط و لم يُذكَرْ الشِّراء؟!
- لماذا جاءتْ (تِجَارَةٌ) و (بَيْعٌ) بصيغة النّكرة؟! في حين أنّ العباداتِ جاءتْ بصيغة المعْرِفة؛ فَلَم يَقُلْ: (عن ذِكْرٍ وصلاةٍ وزكاةٍ)؟!
- لماذا قال (وَإِقَامِ الصَّلَاةِ) و لم يقلْ (الصَّلَاةِ) مباشَرةً؟!
- لماذا قال: (الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) و لم يقلْ: (قُلُوبُهُم وأبْصَارُهُم)؟!
- لماذا ذُكرتْ القلوب والأبصار، و لم يُذكرْ (السَّمْع)؟!

ليس مطلوباً منك ــ بالتّأكيد ــ الإجابةُ عن جميع هذه الأسئلة، ولكنّي ذَكَرتُها على الرّغم من ذلك؛ لكي أفتحَ أمامَك آفاقَ التّفكير التّدبُّريّ!

المبحث الثاني:

مفاتيح التّدبُّر

هل رأيتَ ـــ من قبلُ ـــ خزانةً تُفتح مِن غير مفاتيح، خصوصاً إذا كانت خزانةً مليئةً بالجواهر والدُّرَرِ الثّمينة؟!

كذلك الحالُ مع القرآن الكريم؛ فلا بدّ له مِن مفاتيح، وهل مِن جواهرَ وكنوزٍ كجواهرِ القرآن وكنوزِه؟!

ألا تريد ـــ أخي القارئ ـــ أنْ تعرفَ ما هي هذه المفاتيح؟!... ما رأيُكَ لو ساعدتُك على امتلاكِها؟

تابِعْ معي!

المفتاح الأول:

ما بين دفَّتيْ المصحف هو كلامُ الله تعالى

ستقول لي: وأينَ الجديدُ في كلامِك؟!

فأقول لك: إصبرْ وتابِعْ القراءةَ، من فضلك!

كلُّ المسلمينَ يؤمنون ــ بيقينٍ تامٍّ لا شَكَّ فيه ــ أنّ القرآنَ الكريم هو كلامُ الله تعالى، أوحى به إلى رسولِه محمّدٍ صلى الله عليه وسلم.. هذا صحيح، ولكنّ المشكلةَ تكمنُ في تطبيق هذا الإيمانِ بشكلٍ عمليٍّ عندَ تلاوة آياتِ القرآن!

فنحنُ ــ غالِباً ــ نقرأ القرآنَ الكريم من باب نَيْلِ الأجْرِ والبَرَكة، أو لإتْقانِ أحكامِ التِّلاوة، ويَغيبُ عن أذهاننا ــ عندَ التِّلاوة ــ أنّ ما نقرأُهُ هو كلامُ الله تعالى حقّاً، وأنّه سبحانه شرّفَنَا ــ برحمتِهِ وفَضْلِهِ وكَرَمِه ــ بأنْ أعطانا إمكانيّةَ استقبالِ كلامِهِ، ومِن ثَمّ الانفعالُ به، فإنّ مَن سمع القرآنَ الكريم "كأنّما يسمعُهُ من النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، يقرأهُ على أمّتِهِ، بموعظتِهِ و تِبيانِ معجزته، وانشراحِ صدرِهِ بلطائفِ خطابِهِ، ومَن سَمِعَهُ كأنّما سَمِعَهُ من جبريلَ عليه السّلام، يقرأهُ على النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، يُشاهِدُ في ذلك مُطالعاتِ الغيوب، والنُّطْقَ إلى ما فيه من الوعود"[136]، ولكنّنا غَفلنا عن ذلك لأسبابٍ عدّة، لعلّ أهمَّها: حُكْمُ العادةِ والأُلْفَة؛ كالّذي يسكنُ مكّة المكرّمةَ ويجاورُ بيتَ الله الحرام لسنوات طوال، فهو حين يشاهد الكعبةَ ــ شرّفَها الله تعالى ــ ، هل يكون حالُهُ كَمَنْ يشاهدُها لأوّلِ مرّةٍ في حياتِهِ؟! بالتأكيد لا، مع أنّ مكانةَ الكعبةِ عندَ كِلَيْهما واحدةٌ.

قال الحسنُ البصري رحمه الله تعالى: "إنّ مَنْ كان قبلَكم رأوا القرآنَ رسائلَ مِن ربِّهم؛ فكانوا يتدبّرونها باللّيل ويُنفِّذونها في النّهار"[137]، وقد كان عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ رضي الله تعالى عنه "إذا نَشَرَ المصحفَ غُشيَ عليه ويقول: (هو كلام ربِّي! هو كلامُ ربِّي!)".[138]

---

[136] البرهان في علوم القرآن، 154/2.
[137] التبيان في آداب حملة القرآن، ص51.
[138] إحياء علوم الدّين، 255/1.

وقد "رأى أحدُ طَلَبَة العِلْم رجلاً مِن الأتراك لا يُحسِنُ العربيّةَ، ولكنّه إذا قَرَأ القرآنَ يبكي؛ فسأله: كيف تبكي وأنت لا تعرفُ معنى ما تقرأ؟! فقال له (عن طريق المترجِم): إنّه كلامُ الله، ولكنْ أنتم عَرَب، فلماذا لا تبكون"[139]؟!

حقّاً والله! نحن عربٌ، ونفهم لغةَ القرآن الكريم.. فلماذا لا نبكي؟!

[139] ليدبّروا آياته/ المجموعة الأولى، ص34.

تدريب

اقْرأْ الآياتِ التّاليةَ وكأنّك تسمعُها ـــ بِصِدْقٍ ـــ مِن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يقرأها عليك، ويُبَلِّغُها لك مِن الله تعالى:[140]

- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١.
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ الرعد: ٣٧.
- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الحشر: ٢١.

[140] يمكنُ قراءةُ القرآن الكريم كلِّه بهذه الصّورة وليس فقط هذه الآيات؛ لأنّها صورةٌ حقيقيّة، والسبب في عدم إدراكنا ذلك ابتداءً أنّنا لم نرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وإنّما وصلتنا قراءتُهُ.

المفتاح الثاني:

اقرأْ القرآنَ كأنّهُ أُنزلَ عليك أنت!

حين تقرأ آياتِ القرآن الكريم، فافعلْ ذلك وأنت تُدركُ أنّك أنتَ المخاطَبُ بهذا الكلام الذي تقرأه: تُدركُ ذلك على وجْهِ الحقيقة، لا على سبيل التّمْثيلِ والتّخَيُّل؛ فإنّ "مَن بَلَغَهُ القرآنُ فكأنّما كَلَّمَهُ اللهُ، وإذا قَدَّرَ ذلك: لم يتّخِذْ دراسةَ القرآنِ عَمَلَه، بل يقرؤهُ كما يقرأ العبدُ كتابَ مولاهُ الذي كَتَبَهُ إليه؛ لِيتأمَّلَهُ ويعملَ بمقتضاه"[141]، وأعلم أنّ "الأفضل في وقتِ قراءةِ القرآن: جَمْعِيّةُ القلبِ والهِمّةُ على تدبُّرِهِ وتفَهُّمِهِ، حتّى كأنّ الله تعالى يخاطبك به؛ فَتَجمعَ قَلْبَكَ على فَهْمِهِ وتدبُّرِهِ، والعَزْمِ على تنفيذِ أوامرِهِ أعظمَ مِن جَمْعِيّةِ قلبِ مَن جاءَهُ كتابٌ مِن السّلطان على ذلك".[142]

لذلك، "إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآنِ: فاجمَعْ قلبَكَ عند تلاوتِهِ وسَماعِه، وألْقِ سمْعَك، واحضُرْ حضورَ مَنْ يخاطبُهُ بهِ مَنْ تكلَّم بهِ ــ سبحانه ــ منهُ إليه، فإنّه خطابٌ منهُ لك على لسانِ رسولهِ"[143]صلى الله عليه وسلم.

---

[141] إحياء علوم الدّين، 258/1.
[142] مدارج السّالكين: 101/1.
[143] الفوائد ، ص3.

تدريب

- ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾ الزمر: ٦٤ - ٦٦.
- ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾ يس: ٦٠ - ٦٢.
- ﴿۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ الحديد: ١٦.

المفتاح الثالث:

استعذْ، و سَمِّ!

ما هي الخطوةُ الأولى في تلاوة القرآن الكريم؟!

بالتأكيد هي الاستعاذة، ومِن ثَمّ البسملة، وهما معاً ــ في الوقتِ نفسِهِ ــ المفتاحُ الثّالثُ من مفاتيح التّدبّر!

فلنتكلّمْ عنهما بشكلٍ سريع بما يُفْصحُ عن المقصود:

أمّا **الاستعاذة**: فهي ــ باختصار ــ طَلَبُ العونِ مِن الله تعالى بأنْ يُجيرَكَ مِن الشّيطان ويُعينَك عليه؛ لإنّ الشّيطانَ لنْ يَدَعَكَ تستقبلُ كلامَ الله تعالى وتتفكّرُ فيه مِن غير أنْ يُشَوِّشَ عليك ويُلقيَ عليك وساوسَهُ، ألم يقلْ ــ عليه لعنَةُ الله تعالى ــ: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ الأعراف: ١٦؟!

"وأصلُ اللّفْظةِ مِن اللَّجَأِ إلى الشّيء والاقتراب منه، ومِن كلام العرب: (أطيبُ اللّحم عُوَّذُهُ)؛ أي: الّذي قد عاذَ بالعظْمِ واتّصل به، و (ناقةٌ عائذ): يتّصلُ بها وَلَدُها".[144]

فالاستعاذةُ تُشبهُ ــ ولله تعالى المَثَلُ الأعلى ــ عمليّةَ تّوليفِ المذْياع، والتي نقومُ فيها بتغيير تردُّدِ المذياع إلى أنْ يُطابقَ تردّدَ الإذاعة المطلوبة؛ لكي نحصلَ على أدقِّ صوتٍ وأصْفَاه[145]!؛ فإنّ "الشّيطانَ يُجْلِبُ على القارئ بخَيْلِهِ ورَجِلِهِ، حتى يَشْغَلَهُ عن المقصودِ بالقرآن، وهو تدبّرُهُ وتفهّمُهُ ومعرفةُ ما أراد به المُتكلِّمُ به سبحانه، فيحرصُ بجُهدِهِ على أنْ يَحولَ بين قلبِهِ وبين مقصودِ القرآن؛ فلا يَكْمُلُ انتفاعُ القارئِ به، فأُمِرَ عندَ الشّروعِ[146]أنْ يستعيذَ بالله منه".[147]

وأمّا **البَسْمَلَة**: فهي أنّك بعدَ أنْ طلبتَ عونَ خالقِك ليُعينَك على الشّيطان: تبدأُ قراءةَ القرآنِ الكريم باسمِهِ هو سبحانه، لا باسْمِ عِلْمِك أو قُدْرتِك أو ذكائِكَ أو غيرِ ذلك، وأنّك

---

[144] إغاثة اللّهفان في مصايد الشّيطان، ص157.
[145] هذا التّشبيه مستفادٌ من كلام الشّيخ محمّد متولي الشّعراوي رحمه الله تعالى في خواطره عن القرآن الكريم.
[146] إي: الشّروع بالتلاوة.
[147] إغاثة اللهفان، ص159.

ـــ بهذه البسملة ـــ تُطبِّقُ أوّلَ أمرٍ قرآنيٍّ نزل به الوحي، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ العلق: ١؛ فأنتَ تقرأ كلامَ الله تعالى، وهو ـــ سبحانه ـــ يَمُنُّ عليك بالّلطائفِ والمعاني الجليلة، والتّذكرةِ والاتِّعاظِ والاعتبار، وغيرِ ذلك من الفوائد والفرائد القرآنيّة؛ فهو الرّحمن الرّحيم.

تدريب

- احرصْ على أنْ تكونَ المعاني التي تكلّمنا عنها آنفاً في ذهنِك دائماً وأنتَ تقرأ الاستعاذةَ والبَسْملة، وأنْ لا يكونَ الإتْيانُ بهما بشكلٍ آليٍّ لا روحَ فيه، وتذكّرْ أنّ القرآنَ رُوْحٌ تتفاعل معه الرُّوْح أولاً، ومِنْ ثَمّ الجسد!

فألزِمْ نفسَكَ بأنْ لا تبدأَ تدبّرَ القرآنِ الكريم إلاّ وأنت ممسكٌ بيدِك المفاتيحَ الثّلاثة التي ذكرتُها لك، وهي على التّرتيب:

القرآنُ هو كلامُ الله تعالى.

اقرأْ القرآنَ كأنّهُ أُنزلَ عليك أنت.

الاستعاذةُ والبسملة.

المبحث الثالث:

آليّاتُ التّدبُّر

الآن وقد استلمْتَ نسختَكَ من مفاتيحِ التَّدبُّر: آنَ لك أنْ تفتحَ خزانةَ القرآنِ الكريم، وأنْ تشرعَ في ممارسة عمليّةِ التّدبُّر بالشّكل المنهجيِّ السّليم!

وفي هذا المبحث: سأشرحُ لك عدّةَ آليّاتٍ، تستطيع أنْ تستخدمَها ــ كلَّها أو بعضَها ــ في تدبُّرِ كتابِ الله تعالى، حسبَ ما يلائمك وينفعك، وبالله تعالى التّوفيق.

أولاً: الوِرْدُ اليوميّ

إنّ تدبّرَ القرآن الكريم لا بدّ أنْ يكونَ ممارسةً ثابتةً في جدول أعمالِك اليوميّ، وهذا يفرضُ عليك أنْ تجعلَ لنفْسك وِرْداً يوميّاً خاصّاً بالتدبّر، و أنْ يكونَ هذا الوِرْدُ منفصلاً عن غيرِهِ من الأورادِ المتعلّقة بالقرآن الكريم (مثل: وِرْد التّلاوة، أو وِرْد الحِفْظ)، وقد قال بعضُ السّلف: "لي في كُلِّ جمعةٍ ختمة ، لي في كُلِّ شهرٍ ختمةٌ، لي في كُلِّ سنةٍ ختمةٌ، ولي ختمةٌ منذ ثلاثينَ سنةٍ ما فَرَغْتُ منها بعدُ!".[148]

والأفضلُ في ورْدِ التدبّر اليوميّ أنْ يكونَ مَقيساً بالوقت، وليس بالكميّة؛ "فمِمّا يُعِينُ على قراءةِ التّدبُّر المُحرِّكةِ للقلوب: أنْ يكونَ حِزْبُ القارئ (**وَقْتَ** القراءة)، لا (**مِقْدارَ** القراءة)، فمثلاً: بدلاً مِن تحديد وِرْدٍ مقدارهُ جزءٌ يوميّاً: يكونُ الوِرْدُ نصفَ ساعةٍ يوميّاً؛ لئلا يكونَ الهَمُّ آخرَ السُّورة"[149]؛ وقد قال ابنُ مسعود رضي الله تعالى عنه: "لا تَهُذُّوا القرآنَ هَذَّ الشِّعْر، ولا تَنْثُروهُ نَثْرَ الدَّقَل، و قِفوا عندَ عجائبِهِ، وحَرِّكوا به القلوب، ولا يكنْ همُّ أحدِكم آخِرَ السُّورة".[150]

والهَذّ: "سرعةُ القراءة"[151]، وقولُهُ: نثْر الدّقل: " أي: كما يتساقطُ الرُّطَبُ اليابسُ مِن العِذْقِ إذا هُزَّ".[152]

فإذا كان وِرْدُك التّدبّريّ ــ مَثَلاً ــ صفحتيْنِ يوميّاً؛ فإنّ هَمَّكَ سينصرفُ إلى نهاية الصّفحة الثّانية! أمّا إذا كان الوِرْدُ نصفَ ساعةٍ من الزّمن؛ فإنّك ستجعل كلَّ تركيزِك على ما تَقرأ، وإنْ قلَّ، ولو آيةً واحدة!، فإذا ما انتهى الوقتُ: توقّفْتَ عندَ الآية التي وصلْتَ إليها في تدبُّرك؛ لتواصلَ في اليوم التّالي من حيثُ انتهيت.

---

[148] إحياء علوم الدّين، 256/1.
[149] ليدبّروا آياته/ المجموعة الأولى، ص31.
[150] زاد المعاد، ص340.
[151] لسان العرب، مادّة (هذذ)، 517/3.
152 المصدر السّابق، مادّة (نثر)، 191/5.

تدريب

تدبّرْ صفحةً واحدة من القرآن الكريم اليوم.. وفي الغَدِ: تَدَبُّرَ الصّفحةِ االتالية لها، ولكنْ ــ هذه المرّةَ ــ تدبّرْ لمدة نصفِ ساعة، سواءٌ أكملتَ الصّفحةَ أم لا.

والآن: هل لمستَ الفرْقَ بين الطريقتيْن؟!

ثانياً: أحْسِنْ الوَقْفَ والابتداءَ؛ تُحْسِنْ التّدبُّر!

إنّ ممّا يُعين على تدبُّر كتابِ الله تعالى: إتقانَ الوَقْفِ والابتداء، وهو عِلْمٌ مهمّ جداً، لا يستطيع قارئُ القرآن الكريم أنْ يفهمَ ما يقرأ ــ فضلاً عن أنْ يتدبّرَهُ ــ بدون إتْقانه؛ قال الزّركشيّ: "معرفةُ الوَقْف والابتداء، وهو فنٌّ جليل، وبه يُعرف كيف أداءُ القرآن، ويترتّبُ على ذلك فوائدُ كثيرة، واستنباطاتٌ غزيرة، وبه تتبيّنُ معاني الآيات، ويُؤمَنُ الاحترازُ عن الوقوعِ في المشكلات"[153]؛ ولذلك اهتمّ بهِ علماءُ التِّلاوة مِن السَّلَفِ والخَلَف، و لم يَدَعُوهُ دونَ ضَبْطٍ أو دلالاتٍ؛ بل وضعوا علاماتٍ مخصوصةً[154] تُراعَى عندَ كتابة المصحف، تُساعد القارئَ على أنْ يُحسنَ الوقْفَ والابتداء، "وقد جاء عن ابن عمر أنّهم كانوا يُعلَّمونَ ما ينبغي أنْ يُوقفَ عندَه، كما يتعلّمونَ القرآن".[155]

فمثلاً علامة (مـــ) تدلّ على الوَقْف اللازم؛ فيلزمُ أنْ يقفَ القارئُ عندَ الكلمة التي تعلوها هذه العلامة، ثمّ يبتدأَ بالكلمة التي بعدها، كقولهِ تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الأنعام: ٣٦، فيجبُ على القارئ أنْ يقفَ عندَ كلمة (يَسْمَعُونَ)، ثمّ يبتدأَ القراءةَ مِن (وَٱلْمَوْتَىٰ)؛ لأنّه إذا لم يقفْ وأكملَ القراءةَ فسيكون المعنى: أنّ (الموتى) يستجيبون مع (الذين يسمعون)، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ قطعاً.

والآن تأمّلْ معيَ الأمثلةَ الآتية:

أولاً: قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ البقرة: ٢.

فإذا قرأتَ الآيةَ الكريمة بهذا الشّكل: (ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) خرجْتَ بمعنىً صحيح، له وجهٌ في التّدبُّر، وإذا قرأتَها: (ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ، فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) فستخرج بمعنىً آخر، له وجهٌ آخرُ من التّدبُّر، وهو صحيحٌ كذلك .

---

[153] البرهان في علوم القرآن، 339/1.
[154] وهي علامات الوقف التي نجدها مبيّنة في نهاية المصحف الشّريف، مثل: ج، لا، صلى، قلى، وغيرها.
[155] البرهان في علوم القرآن، 339/1.

ثانياً: قولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ الفجر: ٢١ - ٢٢.

فتقرأها: (كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا، وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا)، أو تقرأها: (كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا وَجَآءَ رَبُّكَ، وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا). وفي كلِّ قراءةٍ وجهٌ للتّدبُّر.

ثالثاً: قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾ النحل: ١٠.

فتقرأها: (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ، لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ، وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ)، أو يمكنك أنْ تقرأها: (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم، مِّنۡهُ شَرَابٞ، وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ).

والخلاصة: أنّ علامات الوقْف والابتداء ما هي إلاّ نِتَاجٌ لِتدبُّرِ علماء السّلف والخَلَف في آيات الكتاب العزيز، لذلك؛ يمكننا عَكْسُ العمليّة: بأنْ نستعينَ بهذه العلامات في تدبُّرِ القرآن الكريم!

تدريب

- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ آل عمران: ٧.
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾ الحديد: ١٩.
- ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ النحل: ٥.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتَ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ الأعراف: ١٧٢.

ثالثاً: الاستعانة بعلاماتِ التَّرقيم

وممّا يُعدُّ مِن الوسائل المُعينةِ على التّدبُّر: التَّرقيم، و "هو وَضْعُ رموزٍ مخصوصة، في أثناء الكتابة، لتعيينِ مواقع الفَصْل والوَقْف والابتداء وأنواع النّبرات الصوتيّة والأغراض الكلاميّة، في أثناء القراءة".[156]

ومن أمثلة علاماتِ التّرقيم: الفاصلة، الفاصلة المنقوطة، علامة الاستفهام، علامة التّعجُّب، وغيرها.

فلو كتبتَ مثلاً: (**نجح زيدٌ في الامتحان.**)؛ فأنتَ تُخبرُ بأنّ (زيداً) نجح في الامتحان.

ولو كتبتَ الجملةَ نفسَها بهذا الشّكل: (**نجح زيدٌ في الامتحان؟**)؛ فأنتَ تسألُ: أنجح (زيدٌ) في الامتحان أو لا؟

ولو كتبتَها بهذا الشّكل: (**نجح زيدٌ في الامتحان!**)؛ فأنتَ تتعجّبُ مِن نجاح (زيد) في الامتحان.

فأنتَ ترى أنّ الكلامَ واحدٌ في الجُمَلِ الثّلاث، ولكنّ المعنى في كلِّ واحدةٍ منها مختلِفٌ عن الأخرى، والذي دَلَّنا على اختلافِ المعنى: علاماتُ التّرقيم، والّتي أنابتْ عن النّبرات الصّوتيّة الّتي يستخدمها المُتكلِّمُ ويُفهِمُ بواسطتِها معنى كلامِهِ.

وبما أنّ تدبُّرَ النّصِّ القرآنيِّ لا يكونُ إلاّ بعدَ فَهْمِ معاني كلماتِهِ وعباراتِهِ، وبما أنّ التّرقيم يُساعد في عمليّة فَهْمِ معاني الجُمَلِ وأساليبِ الكلام؛ فَيُمكننا أنْ نستخدمَ علاماتِ التّرقيم لبيانِ المزيد من الإيضاح للمعنى المراد مِن الآيات الكريمة.

وبالتأكيد فإنّني هنا لا أتكلّمُ عن ترقيم كلماتِ القرآن الكريم في المصاحف، وإنّما أعني بكلامي ترقيمَ الآياتِ القرآنيّة فيما يتعلّق بجانبِ التّعليم.

---

[156] التّرقيم وعلاماته في اللّغة العربيّة/ أحمد زكي، ص12.

ولا بدّ أنْ أُشيرَ إلى أنّ هناك خلافاً بين العلماء في مسألةِ ترقيم القرآن الكريم، إلاّ أنّ الخلافَ في مسألة التّعليم ـــ والحمد لله تعالى ـــ أقلُّ منه بكثيرٍ في مسألة كتابةِ المصحف الشّريف.

و ممّن أباحَ استخدامَ التّرقيمَ ـــ بل حَثَّ عليه ـــ لغرضِ التّعليم مِن المعاصرين: العلاّمة د. **يوسف القرضاوي** ؛ حين أجاب عن سؤالٍ عن حُكْمِ ترقيم الآياتِ القرآنيّة بقوله: "فإنِّي لا أرى بها بأساً، بل أستحسنُها وأستحبُّها؛ لأنّها تُعينُ على فَهْمِ النَّصِّ القرآنيِّ، وأنا شخصياً ألتزمُ بهذا فيما أستشهدُ به مِن نصوصِ القرآن الكريم في كتبي ومحاضراتي، وكلِّ ما أكتبه، بل أنا في الحقيقة ملتزمٌ باستخدام هذه العلاماتِ حتّى في الرّسائل الخاصّة، وأيِّ شيءٍ أكتبه، هكذا اعتدْتُ مِن قديم، **وأنصح كلَّ الكاتبينَ أنْ يحذوا حذوي**".[157]

فلا حرجَ ـــ إنْ شاء الله تعالى ـــ في استخدام التّرقيم في تدبُّر القرآن الكريم.

ولتيسيرِ الأمرِ عليك ـــ قارئي الكريم ـــ؛ إليك الجدولَ التّالي، الّذي يُوضِّح أهمَّ علاماتِ التّرقيم وكيفيّةَ استخدامها[158]، مع بعض الأمثلة القرآنيّة لكلٍّ منها:

[157] هذا الكلام بنصّه موجود على الموقع الرسميّ لفضيلة الدكتور القرضاوي.
[158] أنظر: التّرقيم وعلاماته، ص18 وما بعدها.

العلامة	صورتها	مكان وضعها	مثال
الفاصلة	،	بين الجمل التي يتركّب من مجموعها كلامٌ تامّ الفائدة	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ آل عمران: ١١٦
		بين أنواع الشّيء وأقسامه	﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ التوبة: ٦٠
		بعد لفظة المنادَى	﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ طه: ١١٧
الفاصلة المنقوطة	؛	بين جملتيْن: تكون الثّانية منهما سبباً في الأولى، أو الأولى سبباً في الثّانية	﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ الصافات: ٢٤
النقطة	.	في نهاية الجملة التامّة المعنى	﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ الفاتحة: ٤
النقطتان	:	بين لفظ القول والكلام المقول	﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ الإخلاص: ١
		بين الشّيء وأقسامه أو أنواعه	﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ الحديد: ٢٠
		قبل الكلام الذي يوضّح ما قبلَه	﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾ آل عمران: ١٣
علامة الاستفهام	؟	في نهاية الجملة الّتي يُستفهم بها عن شيء	﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ؟ ٦٢﴾ الأنبياء: ٦٢
علامة التّأثّر	!	في نهاية الجملة الّتي يُعبّر بها عن فرحٍ أو حزنٍ أو تعجّبٍ أو استغاثةٍ أو دعاء	﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ؟ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ!٥﴾ ص: ٥
علامة التنصيص	" "	يُوضع بين قوسيْها المزدوجيْنِ كلّ كلامٍ يُنقل بنصّه	﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ: "قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ؛ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا"، وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ القصص: ٩
الشَّرطتان	ــ ــ	توضعان في وسط الكلام، مكتوباً بينهما الألفاظ الّتي ليست من أركان الكلام، كالجمل المعترضة و المفسِّرة	﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ ــ كَمَا يَقُولُونَ ــ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾ الإسراء: ٤٢

وقد تؤدِّي عمليّةُ الترقيم دَوْرَاً آخَر: هو بيانُ الأوجُهِ التي يحتملها النّصُّ القرآنيّ، كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ المسد: ١ - ٢، فإذا كتبنا ترقيمَ الآية الثّانية بهذا الشّكل: (مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ .) فسيكون معناها: أنّ مالَ أبي لهبٍ وكَسْبَهُ لم ينفعاهُ شيئاً؛ أي أنّ (**ما**) في قوله تعالى (مَآ أَغْنَىٰ) هي نافية. في حين أنّه إذا أعدنا ترقيمَها لتصبحَ: (مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ؟!)؛ فسيكون المعنى: ما الذي نَفَعَهُ مالُهُ وكَسْبُهُ؟! أي أنّ (**ما**) هنا استفهاميّة.

وكلا المعنيَيْنِ مُرادٌ، وهذا مِن بلاغة القرآن الكريم وفصاحتِه؛ فهو يعطي أكثرَ مِن معنىً بأقلِّ الألفاظ، والله تعالى أعلم.[159]

[159] وقدّ مرّت بنا أمثلة مشابهة في موضوع الوقف والابتداء.

تدريب

قُمْ بترقيم الآيات الكريمة التّالية، ثمّ قارنْ بين الآيةِ ـــ بعدَ ترقيمها ـــ وبينَ ما كانتْ عليه قبلَهُ مِن حيثُ سهولةُ التّدبُّر:

- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ آل عمران: ٣٦.
- قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ المائدة: ٢٦.
- قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾ الليل: ١١.

رابعاً: الإحسانُ في تلقّي القرآن

حين تقرأُ القرآنَ الكريمَ بالتّدبُّر: احرصْ على أنْ تُحسِنَ تلقِّيَ كلماتِه، وذلك بأنْ تقرأهُ ــ قَدْرَ استطاعتِك ــ وكأنّك تقرؤهُ لأوّل مرّةٍ؛ لإنّ ممّا يَقطعُ الخواطرَ التدبُّريّة في النّصِّ القرآنيِّ ــ أو يُقلِّلُها ــ العِلْمُ المُسْبَقُ بالنَّصِّ نفسِه!

ولعلّ ممّا يخدم المتدبِّرَ في هذا الجانب: الانتباهَ إلى مواضعِ **الالتفات في الخطاب** التي وردتْ في القرآن الكريم؛ إذْ تكمنُ فيها أسرارٌ بديعة، وحِكَمٌ بليغة.

فما هو الالتفات؟!

الالتفات: ظاهرةٌ في اللّغة العربيّة، معناها أنْ ينتقلَ المتكلِّمُ من ضمير المخاطَبِ إلى ضمير الغائب، أو مِن الضّمير إلى الاسم الظّاهر، أو بالعكس، وذلك حين يريدُ أنْ يجذبَ انتباهَ السّامعِ إلى معنىً مِن المعاني؛ فَيُغيِّرَ الضّميرَ **لِيَلْفِتَ** السّامعَ، ويجعلَهُ يحرصُ على سَماعِ ما تبقّى من الكلام.

والآن، لْنُدَلِّلْ على كلامنا بالأمثلة؛ فإنّه بالمثال يتّضح المقال:

المثال الأول:

كلُّ المسلمينَ يردِّدونَ قولَهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة: ٢ ــ ٥ ما لا يقلُّ عن (17) مرّةً في اليوم واللّيلة، ولكنْ: كم عددُ الذين يفطنونَ منهم إلى الالتفاتِ الموجود في هذه الآيات؟!.. تابع معي:

لّما قال تعالى: (ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤)، جاء بعدَها قولُهُ تعالى: (إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥) باستخدام ضمير المخاطَب، في حينِ أنّنا كنّا نتوقّعُ أنْ تأتيَ الآيةُ بصيغة ضمير الغائب: (إيّاهُ تعبدون وإيّاهُ تستعينون) استمراراً مع الآياتِ التي سَبَقَتْها، فلمَ كان ذلك؟!

الجواب: لأنّ قارئَ سورة الفاتحة بعدَ أنْ حَمِدَ الله تعالى، و وَصَفَهُ بما ليس لغيرِهِ سبحانه: من رُبوبيّتِهِ للعالَمين، ورحمتِهِ ورحمانيّتِهِ، وكونِهِ مالكَ يومِ الدِّين، فكأنّ القارئ ــ باستحضارِهِ لصِفاتِ الرّبِّ العِظامِ هذه ــ صار صار في حضرته تعالى؛ فلذلك ينتقلَ مِن خطابِ الغائب إلى خطاب الحاضِر؛ فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، "**فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنّهُ يراك**".[160]

المثال الثاني:

لو سمعتَ أَبَاً يقول لابنِهِ: (**أنا اشتريتُ لك الدّراجةَ؛ فَاشْكُرْ أباك**)، فإنّك ستستغربُ قولَهُ:(**فَاشْكُرْ أباك**) وتقول في نفسك: ألم يكنْ من الأفضل أنْ يقولَ له: (**فَاشْكُرْني**)؟!

حَسَنٌ.. الإجابةُ عن سؤالِك هذا موجودةٌ في أقصرِ سورةٍ في القرآن الكريم ــ ولله تعالى المَثَلُ الأعلى ــ وهي قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ الكوثر: ١ - ٢، وهي من أوائلِ ما حفظناهُ منذُ الصِّغَر؛ ولهذا نقرأها بعُجالةٍ من غير أنْ ننتبهَ إلى الالتفاتِ الموجود فيها[161]، فإنّه بعدَ قولِهِ تعالى: (إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ) كان المُتوقَّعُ أنْ يقولَ بعدَها: (**فَصَلِّ لنا** ــ أو: **فَصَلِّ لِيَ** ــ وانحرْ)، ولكنّ المتكلِّمَ ليس أنا أو أنت ، بل هو اللهُ تعالى ؛ فقال جلَّ جلالُهُ : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ) .

والسّببُ في ذلك ــ والله تعالى أعلم ــ أنّه لو قال: (**فَصَلِّ لنا وانحرْ**)؛ لكانتْ الصّلاةُ في مقابل العطاء، ولكنّه تعالى قال: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ)، أي: فَصَلِّ لِمَنْ خلَقَك و رعاكَ و ربَّاك؛ فهو ربُّك؛ فلْتكنْ صلاتُك لهُ لأنّهُ ربُّك، لا لمجرّدِ عطائِهِ لك.. فَهَبْ أنّه تعالى ضيَّقَ عليك العطاءَ ــ لحكمةٍ اقتضاها عِلْمُهُ و رحمتُهُ بك ــ، فهل كنتَ تمتنعُ عن أداءِ الصّلاةِ له؟!

المثال الثالث:

---

[160] صحيح الجامع الصّغير، رقم (1037).

[161] في حين أنّنا انتبهنا بسرعة إلى الالتفات الموجود في عبارة (أنا اشتريتُ لك الدّراجة؛ فاشكرْ أباك)؛ بسبب عدمِ الألفة عليها، فتنبّه!

قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ يونس: ٢٢، ففي الآية الكريمة التفاتٌ من المخاطَب: (حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ) إلى الغائب: (وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا)، فلم يقلْ: (**وجَرَيْنَ بِكم**)؛ لأنّه في بداية الكلام كان المخاطَبون حاضِرينَ؛ فخاطَبَهُم بضمير المخاطَب (حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ)، ثم رَكِبوا في الفُلْك، أي: السُّفُن، فهم الآن قد غابوا في عُرْضِ البحر وليسوا حاضرين؛ فانتقل الخِطابُ إلى ضمير الغائب: (وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا).

فما أروعَ فصاحةَ القرآنِ الكريم! وما أجملَ الحياةَ مع آياتِهِ وكلماتِهِ!

وممّا يدخل في بابِ قراءة القرآن بإحسان: الآياتُ المُصَدَّرَة بعبارة (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)؛ فإنّها مِن المواضعِ التي يَجْدُرُ بالمسلم أنْ يقفَ عندَها ويتأمّلَ في ما يأتي بعدَها من كلام؛ قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه: "إذا سمعتَ اللهَ يقول: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) فَأَرْعِهَا سَمْعَك؛ فإنّه خيرٌ يأمرُ به أو شرٌّ يَنهى عنه".[162]

وممّا يدخل في هذا الباب أيضاً: أنْ تقرأَ القرآنَ قراءةَ مَن يبحثُ عن حَلٍّ لمشكلتِهِ وهو متيقنٌ أنّه موجودٌ في القرآن، أيّاً كانت المشكلة، حتّى إذا ما وجدتَ الحلَّ صِحْتَ: **وجدتُها وجدتُها!**

ألم تَرَ إلى أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله تعالى عنه عندَما واجهتْهُ مشكلةُ تقسيمِ أرضِ العراق ــ بعدَ فَتْحِها ــ على الفاتحين، فماذا فعل؟!... وجد حلَّ مشكلتِهِ في الآيات (6-10) من سورة الحشْر، وما كان له ذلك ــ رضي الله تعالى عنه ــ لولا تدبُّرُهُ لكتابِ الله تعالى وفَهْمُهُ له وفقهُهُ.[163]

---

[162] تفسير ابن كثير، 257/1.

[163] أنظر تفاصيل القصّة بأكملها في كتاب (سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه): د. علي محمّد الصّلابيّ، ص237-239.

ولَطالَما قرأنا وسمعنا بأنّ كثيراً مِن الصّالحين ــ قديماً وحديثاً ــ كانت سببَ توبتِهم آيةٌ واحدة ــ أو أكثر ــ مِن القرآن الكريم، آيةٌ طَرَقَتْ سَمْعَهُ ودخلَتْ قلبَهُ؛ فحرّكتْ في نفسِهِ وازِعَ الإيمان، فحصل التّغيير! قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٨٢.

ومِن هؤلاء: الفُضَيْل بن عِيَاضٍ رحمهُ الله تعالى، والّذي كان يُلقّب بـــ (عابد الحرميْن)؛ فقد كان "سببَ توبتِهِ أنّه عَشِقَ جاريةً فواعدتْهُ ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدرانَ إليها إذْ سمعَ قارئاً يقرأ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ الحديد: ١٦؛ فرجع القهقرى وهو يقول: بلى واللهِ قد آنَ! فآواهُ اللّيلُ إلى خربةٍ وفيها جماعةٌ مِن السّابلة، وبعضُهُم يقول لبعض: إنّ فضيلاً يقطع الطّريقَ. فقال الفضيل: "أوّاه! أراني باللّيلِ أسعى في معاصي الله، قومٌ مِن المسلمين يخافونَني! اللّهمّ إنّي قد تُبْتُ إليك، وجعلتُ توبتي إليك جوارَ بيتِكَ الحرام". [164]

وإذا كانت هذه الآيةُ هي نقطةَ التّحوُّل في حياةِ الفُضَيْل رحمه الله تعالى؛ فَلِمَ لا تبحثُ عن الآية ــ أو الآياتِ ــ الّتي تصنعُ بك ما صَنَعَتْهُ آيةُ سورةِ الحديد بالفُضَيْل؟!

[164] الجامع لأحكام القرآن، 251/17.

تدريب

عِشْ ـــ بإحسانٍ ـــ مع الآياتِ التّالية، وتدبَّرْها:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ الإسراء: ١.
- ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ آل عمران: ١٩٥.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾ البقرة: ٢٧٨.

خامساً: تدبَّرْ.. بينَ يدَيْ الكريم!

ومن وسائلِ تدبُّرِ كتابِ اللهِ تعالى: أنّ يقفَ المسلمُ بين يدَيْ ربِّه سبحانه في صلاة النّافلة، ولا سيّما صلاةِ اللّيل، خصوصاً في الثُّلُث الأخير منه[165]، يقرأ فيهنّ بفاتحةِ الكتاب وشيءٍ من القرآن الكريم، وهي فرصةٌ ثمينةٌ جداً لِتدبُّرِ ما يقرؤه؛ فإنّ الربَّ سبحانه وتعالى كريمٌ، يُفيض على عبدِهِ ما شاء مِن معانٍ وخواطرَ قرآنيّةٍ؛ قال ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى: "وسمعتُ شيخَ الإسلام ابنَ تيميّة قدّس الله روحَه يقول: (إذا لم تجدْ للعمل حلاوةً في قلبك وانشراحاً: فاتّهِمْهُ؛ فإنّ الرّبَّ تعالى شكورٌ)، يعني أنّه لا بدّ أنْ يُثيبَ العامِلَ على عملِهِ في الدّنيا، مِن حلاوةٍ يجدها في قلبِهِ، وقوّةِ انشراحٍ وقرّةِ عينٍ، فحيثُ لم يجدْ ذلك؛ فعملُهُ مَدْخُولٌ"[166].

وكم مِن مسلمٍ إذا دخل في الصلاة وقرأ شيئاً مِن القرآن: حصل له مِن تدبُّرِها ومعانيها وخواطرِها ما لم يحصلْ له في أثناء قراءتِهِ خارجَ الصّلاة!

فالمسلمُ "ينبغي أنْ يكونَ اعتناؤهُ بقراءة القرآن في اللّيل أكثرَ، وفي صلاة اللّيل أكثر، قال الله تعالى: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ آل عمران: ١١٣ - ١١٤"[167]، "وإنّما رُجِّحَتْ صلاةُ الليل وقراءتُهُ لكونها أجمعَ للقلب، وأبْعَدَ مِن الشّاغِلات والمُلْهياتِ والتّصَرُّفِ في الحاجات، وأصْوَنَ مِن الرِّياء وغيرِهِ من المُخَبِّطات".[168]

وممّا يُنبَّهُ عليه هنا: ضرورةُ التّنويع في القراءة عقِبَ الفاتحة؛ إذْ من المُلاحَظِ أنّ كثيراً من المصلِّينَ يلتزمونَ قراءةَ سورٍ معيّنة دونَ غيرها في صلواتِهم، إمّا بسببِ قلّةِ ما يحفظون من القرآن[169]، وإمّا بسببِ الاعتيادِ على قراءةِ سورٍ وآياتٍ بعينِها دون سواها، وإمّا لغير

---

[165] هو الثلث الأخير من الوقت ما بين أذاني المغرب والفجر؛ فإذا كان أذان المغرب في الساعة 7:15 مساءً وأذان الفجر في الساعة 3:30 بعد منتصف الليل مثلاً: فإنّ الثلث الأخير يكون من الساعة 12:45 بعد منتصف الليل إلى أذان الفجر.

[166] مدارج السّالكين، ص283.

[167] التبيان في آداب حملة القرآن، ص61.

[168] المصدر السّابق: ص63.

[169] وهو السبب الأكثر شيوعاً.

ذلك؛ فيكون أداؤهُم للصّلواتِ أداءً آليّاً روتينيّاً، لا فِكْرَ فيه ولا تركيزَ، ومَنْ كانتْ صلاتُهُ على هذه الحال: فأنّى له أنْ يتدبّرَ ما يقرأ في صلاتِهِ مِن آيات القرآن الكريم، فضلاً عن أنْ يخشعَ فيها؟!

ويمكنُ ــ في البدايةِ ــ أنْ يستعينَ المصلِّي بالمصحف، فيحملَهُ ويقرأَ منه، ويمكنُ له أنْ يستمرَّ على هذه الحال إلى أنْ يزدادَ رصيدُهُ مِن الحِفْظ بما يسمحُ له أنْ يستغنيَ عن حَمْل المصحف، على الرّغم من أنّ السّلف كانوا يستحبّون القراءة من المصحف ــ في غير الصّلاة ــ حتى لحافظ القرآن الكريم.[170]

وللمتدبِّر أيضاً أنْ يُكرِّرَ الآيةَ التي يجد أنّ قلبَهُ قد تعلّق بها، أو ذاق لَذّتَها: يكرِّرها ما شاء من المرّات، حتى يحصلَ له أثَرُها، وينتفعَ ببركتها، "فلو علم النّاسُ ما في قراءة القرآنِ بالتّدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأهُ بتفكُّر؛ حتّى إذا مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبِهِ: كرّرها ولو مائةَ مرّةٍ، ولو لِليلةٍ؛ فقراءةُ آيةٍ بتفكّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذَوْقِ حلاوة القرآن".[171]

وقد تواتَرَتْ أفعالُ السّلف وأقوالُهم في استخدام هذا الأسلوب، وحرصِهم عليه، والحثِّ على ملازمته، كيف لا وهو سُنّةٌ نبويّةٌ شريفةٌ؟! فقد "قام النّبيُّ صلى الله عليه وسلم بآيةٍ يُردِّدُها حتى أصبحَ" والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ المائدة: ١١٨، رواه النّسائي وابنُ ماجه".[172]

"وعن تميمٍ الدّاري رضي الله عنه: أنّه كرّر هذه الآيةَ حتى أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ الجاثية: ٢١ ".[173]

---

[170] أنظر: التبيان في آداب حملة القرآن، ص98.
[171] مفتاح دار السعادة، ص535.
[172] التبيان في آداب حملة القرآن، ص83-84.
[173] أنظر: المصدر السابق، ص84.

وممّا يدخل في تدبُّرِ القرآن في صلاة اللّيل ويُساعد عليه: تفاعُلُ المصلِّي مع ما يقرأ مِن آياتٍ وانفعالُهُ بها؛ فيُستحبُّ له "إذا مَرَّ بآية رحمةٍ أنْ يسألَ اللهَ تعالى مِن فضلِهِ، وإذا مرَّ بآيةِ عذابٍ أنْ يستعيذَ باللهِ مِن الشّرِّ أو مِن العذاب، أو يقول: اللّهمّ إنِّي أسألك العافية، أو أسألك العافيةَ مِن كلِّ مكروه، أو نحو ذلك، وإذا مَرَّ بآية تنـــزيهٍ لله سبحانه وتعالى نزَّهَ فقال: سبحانه وتعالى، أو: تبارك الله، أو: جلَّتْ عَظَمَةُ ربِّنا.

فقد صحَّ عن حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنهما قال: (صلّيتُ مع النّبيِّ صلى الله عليه وسلم ذاتَ ليلةٍ فافتتح البقرةَ، فقلتُ: يركع عند المائة، ثمّ مضى، فقلتُ: يصلِّي بها في ركعة، فمضى، فقلتُ يركع بها، ثمّ افتتح النِّساءَ فقرأ بها، ثمّ افتتح آلَ عمران فقرأها، يقرأ مترسِّلاً؛ إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيح: سبَّح، وإذا مَرَّ بآيةِ سؤال: سأل، وإذا مَرَّ بتعوّذٍ: تعوَّذ" رواه مسلم في صحيحه، وكانت سورة النِّساء في ذلك الوقت متقدِّمةً على آل عمران".[174]

فانظرْ ـــ وفّقني الله وإيّاك ـــ إلى حُسْنِ صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقرأ سُوَرَ البقرة وآل عمران والنِّساء في رَكعةٍ واحدة! وليست القراءةُ كالّتي نعرفها نحن!، وإنّما هي قراءةٌ بِتَرَسُّلٍ واطمئنانٍ، يتخلَّلُها تسبيحٌ ودعاء، وتعوّذٌ ورجاء.

وما ذاك إلاّ لاستمتاعِهِ بما يفعل، وأُنْسِهِ بمَنْ يُناجي.. أسأل اللهَ تعالى أنْ لا يحرمَني ـــ وإيّاك ـــ لذّةَ مناجاتِهِ، وشَرَفَ القُرْبِ منه.

[174] التبيان في آداب حملة القرآن، ص90.

تدريب

- بعد أنْ تُصليَ فرْضَ العشاء لهذا اليوم: صلِّ ركعتيْن، اقرأ فيهما وِرْدَك اليوميَّ للتّدبُّر، والأفضلُ أنْ تكونَ قد تدبَّرتَه في وقتٍ سابقٍ مِن اليوم.

واحرصْ على قراءةِ الآياتِ قراءةً تدبُّريّةً، كما مَرَّ معنا في السُّطورِ السّابقة، ثمّ اسألْ نفسَك: هل وجدتَ أثَرَ التدبّر في صلاة الليل أم لا؟!.. وهل اختلفتْ هاتانِ الرّكعتانِ عن أيِّ صلاةٍ صلّيتَها فيما مضى مِن عمرك؟!

سادساً: إقرأ القرآنَ كما قرأهُ الصّحابة!

ومن أساليبِ تدبُّرِ كتابِ الله تعالى: قراءةُ سُوَرِ القرآن الكريم حسبَ ترتيبِ نزولها؛ فإنّ هذه القراءة تجعل القارئَ يعيش في الجوِّ الأوّل لِنُزول الآياتِ، ويذوق بعضَ ما ذاقهُ الصّحابةُ رضي الله تعالى عنهم حين طَرَقَ القرآنُ أسماعَهم أولَ مرّةٍ؛ فأعلنوا إسلامَهم وخضوعَهم لله ربِّ العالمين.

و"هذه مسألةٌ جليلةٌ كبيرةُ القَدْرِ جدّاً، قد خَفِيَ على كثيرٍ مِن أهل القرآن وَجْهُ الصّواب فيها؛ فوقعوا في خلافِ منهجِ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومنهجِ أصحابِه رضي الله عنهم. ومنهجُ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم في تعليم أصحابِه القرآنَ هو تعليمُ الإيمان أوّلاً قبلَ تعليم الأحكام، وهي داخلةٌ ضمن القاعدة المشهورة عندَ السّلف في التّعليم (التّعليم الرّبّاني: هو الذي يُربِّي النّاسَ بِصِغار العلم قبلَ كِبارِهِ)".[175]

ومن المعلوم أنّ التزامَ التّرتيبِ الذي بين أيدينا لسُوَرِ القرآن الكريم واجبٌ عندَ كتابةِ المصحف الشّريف، سواءٌ أكانَ الأمرُ بتوقيفٍ من النّبيِّ صلى الله عليه وسلم أم باجتهادٍ من الصّحابة رضي الله تعالى عنهم ــ على خلافٍ بين العلماء ــ، أمّا التزامُ التّرتيبِ في القراءة فإنّ "ترتيبَ السّورِ في التّلاوة ليس واجباً، إنّما هو مندوب"[176]، وقد قال النّوويُّ رحمه الله تعالى: "ولو خالَفَ[177] الموالاةَ فقرأ سورةً لا تَلِي الأولى، أو خالَفَ التّرتيبَ فقرأ سورةً ثمّ قرأ سورةً قبلَها: جازَ؛ فقد جاءتْ بذلك آثارٌ كثيرةٌ، وقد قرأ عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه في الرّكعة الأولى مِن الصُّبْحِ بـــ {**الكهف**} وفي الثّانية بسورة {**يوسف**}"[178]، فإذا كانت القراءةُ بما يخالِفُ ترتيبَ المصحف جائزةً في الصّلاة؛ فإنّها خارجَ الصّلاة أكثرُ جوازاً، خصوصاً إذا كان ذلك لغرضٍ مطلوب، كالتّدبّر، والله تعالى أعلم.

"فإنْ سألتَ: ما الإيمان الذي نتعلّمه أوّلاً قبلَ الأحكام؟

---

[175] فنّ التدبّر، ص47.
[176] مجلة البحوث والدراسات القرآنيّة، العدد 9، السّنة 65، ص75.
[177] أي: المُصَلِّي.
[178] التبيان في آداب حملة القرآن، ص96-97.

فالجواب: هو أوائلُ ما عَلَّمَهُ النّبيُّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه، **وهو أوائل ما نزل من القرآن.**

فالإيمانُ الذي تكرّر ذِكْرُهُ والتأكيدُ عليه في ابتداء دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم هو ثلاثة أقسام:

الأوّل: الإيمان بالله (ربوبيّةً وألوهيّةً وأسماءً وصفاتٍ).

الثاني: الإيمان برسولِهِ صلى الله عليه وسلم.

الثالث: الإيمان بالبعث في اليوم الآخر".[179]

والقراءةُ حسبَ ترتيبِ النّزول تعطي النّصَّ القرآنيّ ملامحَ جديدةً، ربّما تغيبُ عن ذهن قارئِ النّصِّ الّذي اعتادَ القراءةَ حسبَ ترتيب المصحف؛ فقد يظنّ كثيرٌ من المسلمين ــ مثلاً ــ سورةَ البقرة مكيّةً؛ كونَها ثانيَ سورةٍ في ترتيب المصحف، في حين أنّها سورةٌ مدنيّة، بل هي أولُ ما نزلَ في المدينة المنوّرة، وترتيبها حسب ترتيب النّزول هو (87)؛ ولذلك نجدها ــ مثلاً ــ قد ذَكَرَتْ المنافقين، وهم صِنفٌ تعايش معه المسلمون في المدينة، وإذْ لم يكنْ للنِّفاق وجودٌ في مكّة: خلتْ السّورُ المكيّة من ذِكْر النِّفاق والمنافقين.

ومن فوائد القراءة حسبَ ترتيب النّزول: إدراكُ سنّة التّدرُّج في الأوامر والنّواهي القرآنيّة، كتحريم الخمر والرِّبا، والتي لا يمكن إدراكُها إلاّ بعدَ ترتيب الآيات التي تكلّمتْ عن الخمر والميسر ــ مثلاً ــ حسبَ ترتيب نزول السّور التي وردتْ فيها.

وللتّدليلِ على ما ذُكِر: إليكَ المَثَلَ التّالي:

(إن الله زكّى لسانَ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ النجم: ٣، ثم زكّى بَصَرَهُ؛ فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ النجم: ١٧، ثمّ زكّى قلبَهُ؛ فقال: ﴿مَا كَذَبَ

[179] فنّ التدبّر، ص50 - 51.

﴿ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ النجم: ١١، ثمّ زكّاهُ كُلّه صلى الله عليه وسلم؛ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ القلم: ٤).

هذه العبارة كثيراً ما سمعناها من خطباء المنابر والمحاضرين وغيرهم، ولكنّها ـــ للأسفِ ـــ عبارةٌ خاطئة؛ لأنّ ترتيبَ النّزول يُبيِّن لنا أنّ سورة القلم هي السّورة الرّابعة في التّرتيب، في حين تأتي سورةُ النّجم في المرتبةِ الثّالثةِ والعشرينَ في التّرتيب؛ وهذا يدلّ على أنّ قولَهُ تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) سابقٌ في نزولِهِ على الآياتِ مِن سورة النّجم وليس بعدَها كما تذكر العبارةُ السّابقة، وهو يدلّ أيضاً على أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان على خُلُقٍ عظيم منذُ بداية نزول القرآن الكريم عليه.. ألم يكنْ أهلُ مكّة يُسَمّونه (الصّادق الأمين) قبلَ البعثة؟! صلى الله عليه وسلم.

و إتماماً للفائدة؛ تجدُ في الجدول الموجود في الصّفحة التّالية ترتيبَ نزول سُوَرِ القرآن الكريم[180]، مع ملاحظة أنّ السّورَ المكيّة هي ما كُتب باللّون الأحمر، وعددُها (86) سورةً، في حين يبلغ عددُ السّوَرِ المدنيّة (28) سورةً، وهي المكتوبةُ باللّون الأخضر:

[180] اتّبعتُ في ترتيب سورتَيْ (المدّثّر) و (القلم) التّرتيب المذكور في تفسير (**معارج التّفكّر ودقائق التّدبّر**) للشّيخ عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ رحمه الله تعالى، أمّا باقي السّور فاتّبعتُ فيها التّرتيب المشهور الّذي تذكرهُ المصاحفُ المطبوعة، والذي اختارهُ الأزهر الشّريف.

ترتيب سور القرآن الكريم حسب النّزول							
الترتيب	السورة	الترتيب	السورة	الترتيب	السورة	الترتيب	السورة
1	العلق	30	القارعة	59	الزمر	88	الأنفال
2	المدثر	31	القيامة	60	غافر	89	آل عمران
3	المزمل	32	الهمزة	61	فصلت	90	الأحزاب
4	القلم	33	المرسلات	62	الشورى	91	الممتحنة
5	الفاتحة	34	ق	63	الزخرف	92	النساء
6	المسد	35	البلد	64	الدخان	93	الزلزلة
7	التكوير	36	الطارق	65	الجاثية	94	الحديد
8	الأعلى	37	القمر	66	الأحقاف	95	محمد
9	الليل	38	ص	67	الذاريات	96	الرعد
10	الفجر	39	الأعراف	68	الغاشية	97	الرحمن
11	الضحى	40	الجن	69	الكهف	98	الإنسان
12	الشرح	41	يس	70	النحل	99	الطلاق
13	العصر	42	الفرقان	71	نوح	100	البينة
14	العاديات	43	فاطر	72	إبراهيم	101	الحشر
15	الكوثر	44	مريم	73	الأنبياء	102	النور
16	التكاثر	45	طه	74	المؤمنون	103	الحج
17	الماعون	46	الواقعة	75	السجدة	104	المنافقون
18	الكافرون	47	الشعراء	76	الطور	105	المجادلة
19	الفيل	48	النمل	77	الملك	106	الحجرات
20	الفلق	49	القصص	78	الحآقة	107	التحريم
21	الناس	50	الإسراء	79	المعارج	108	التغابن
22	الإخلاص	51	يونس	80	النبأ	109	الصف
23	النجم	52	هود	81	النازعات	110	الجمعة
24	عبس	53	يوسف	82	الإنفطار	111	الفتح
25	القدر	54	الحجر	83	الإنشقاق	112	المائدة
26	الشمس	55	الأنعام	84	الروم	113	التوبة
27	البروج	56	الصافات	85	العنكبوت	114	النصر
28	التين	57	لقمان	86	المطففين		
29	قريش	58	سبأ	87	البقرة		

ولمعترضٍ أنْ يقول: إنّ كثيراً مِن سُوَرِ القرآن الكريم لم تنـــزلْ جملةً واحدة، وإنّما نَزَلَتْ آياتُها متفرَّقةً حسبَ الحوادث، فكيف نستطيع الاعتمادَ على ترتيب النّزول وهو مُرتّبٌ على السّور؟!

فأقول: الاعتراض في محلِّه، ولكنّ ذلك لا يمنعُ من التّدبُّر حسبَ ترتيب النّزول، خصوصاً أنّ له فوائدَ جليلةً كما أسلفتُ؛ فليس المُرادُ منه الإحاطةَ بجميع الآيات مُرتّبةً حسبَ نزولِها، وإنّما المُراد: الاستئناسُ بهذا التّرتيب لمحاولة فهم النّصِّ القرآني وتدبُّرِهِ بشكلٍ أعمقَ. [181]

ويمكن للمتدبِّرِ أنْ يتّبعَ منهجاً آخَر، وهو: أنْ يبتدأَ ـــ في الأقلِّ ـــ بتدبُّرِ أوائلِ ما نزل من آيات القرآن الكريم، وهو الّذي يُسمّى (**المُفَصَّل**)[182]، ومُعظمُهُ مِن قِصار السُّوَر، ولكنّها ـــ على الرّغم مِن ذلك ـــ هي "الّتي غرستْ الإيمانَ كالجبال في قلوب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم "... "فإنْ قلتَ: قد قرأنا أوائلَ ما نزل، بل وحفظْناه، ولم نرَ أثرَ ذلك في إيماننا.

فالجواب ـــ يا أخا القرآن ـــ: إنّنا لم نأخذ القرآنَ كما أخذوهُ رضي الله عنهم". [183]

[181] ولهذا ظهرتْ عدّة كتبٍ في تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النّزول.
[182] ويبدأ من سورة (ق) إلى آخر سورة (النّاس)، أنظر: البرهان في علوم القرآن، (245/1).
[183] فنّ التدبّر، ص51 – 52.

تدريب

- ذُكرتْ قصصُ اليهود مع أنبياء الله تعالى ــ عليهم وعلى نبيِّنا الصّلاة والسّلام ــ كثيراً في القرآن الكريم، وفي ذلك حِكَمٌ كثيرة وفوائدُ غزيرة ليس هذا مقامَ بَحْثِها، ولكنْ! ما هي آخرُ قصّة ذُكرت لهم في القرآن؟! وما العبرةُ المُسْتقاةُ من ذلك؟!

يمكنك الإجابةُ عن هذيْنِ السّؤاليْنِ مستعيناً ــ بعدَ الله تعالى ــ بترتيب النّزول.

- أمرَ الله تعالى عبادَه المؤمنين إذا سمعوا أو رأوا من أعداء الإسلام استهزاءً بآياتِ الله أنْ يُعرضوا عنهم ولا يقعدوا معهم، وذلك في آيتيْنِ كريمتيْن: الأولى في سورة الأنعام، والأخرى في سورة النِّساء.

جِدْ هاتيْنِ الآيتيْنِ، واقرأهما بتدبُّرٍ، ثمّ رتِّبْهما حسبَ ترتيب نزول سورتَيْهِما، واقرأهما بتدبُّرٍ؛ لتكتشفَ فائدةَ ترتيب النّــزول في فهم آياتِ القرآن الكريم.

سابعاً: التّدبُّر الموضوعيّ

وهو أسلوبٌ أخر من أساليب تدبُّر القرآن الكريم، لا غِنى عنه للخطيب حين يريد إعدادَ خطبةٍ أو محاضرة، أو طالبِ العلم الذي يريد إعدادَ بحثٍ ما، أو أيِّ مسلمٍ يريد معرفةَ كيفيّة تعامل القرآن مع موضوعٍ محدّد.

وهذا الأسلوبُ هو ما يسمِّيه العلماءُ بـــ (التّفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم): وهو نوعٌ من أنواع التّفسير الذي بدأتْ أصولُهُ تترسّخ ومناهجُهُ تتّضح في السّنوات الأخيرة، وأُقِرَّ تدريسُهُ في الجامعات.[184]

وتتلخّص طريقةُ التُّدبّرُ الموضوعيّ في أنْ **تَجمعَ آياتِ الموضوع الواحد في موضعٍ واحد، ثمّ تتدبَّرَها**؛ فتتكوّنَ لديك صورةٌ متكاملة عن ذلك الموضوع في القرآن الكريم.

ولعلّ هذا هو أحدُ معنيَي[185] قولِهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ المزمل: ٤؛ لأنّ التّرتيل في اللّغة هو "حُسْنُ تناسُقِ الشّيء"[186]، ونحن نستخدم التّرتيلَ في لغتنا المعاصرة بهذا المعنى؛ فنقول: (رَتَلُ السّيّارات) لمجموعةٍ من السّيّارات، و (رَتَلُ الدّبّابات) لمجموعة من الدّبّابات، ويُوضِّحُهُ ما نشاهدُهُ في الاستعراضات العسكريّة؛ التي يكون فيها كلُّ صنفٍ من الآليّات مجموعاً معاً، مستقلاً بنفسه.

وكمثالٍ تطبيقيّ: نتناول موضوعَ (**تحريم الخمر في القرآن الكريم**)؛ فستجد ـــ بعد جَمْعِ الآياتِ القرآنيّة التي تناولت الموضوع ـــ أنّ تحريم الخمرَ تَوَزَّعَ على أربعة مواضعَ في القرآن الكريم[187]، وهذه المواضع هي:

أولاً: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ البقرة: ٢١٩.

---

[184] أنظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم/ نخبة من علماء التّفسير وعلوم القرآن، 1/أ .
[185] والمعنى الآخر هو التّرتيل كمرتبة من مراتب القراءة المشهورة.
[186] لسان العرب، مادّة (رتل)، 265/11.
[187] وليس ثلاثة، كما يظنّ كثيرٌ من الباحثين.

ثانياً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣.

ثالثاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ المائدة: ٩٠ - ٩١.

رابعاً: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ النحل: ٦٧.

والآن، نقوم بكتابة الآياتِ مِن جديدٍ ولكنْ نكتبها هذه المرّةَ حسبَ ترتيب نزولها؛ فنحصل على مراحل تحريم الخمر في القرآن الكريم، وهي:

المرحلة الأولى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ النحل: ٦٧.

هنا إشارة خفيفة إلى تحريم الخمر؛ فقولُهُ تعالى (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ) أي: مِن التَّمْر والعِنَب (سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا): عَطَفَ بين (السَّكَر) و (الرِّزْق الحَسَن)، والعطْفُ بالواو يقتضي المغايرة، كما يقول أهلُ اللّغة، أي أنّ المعطوفَ يختلف عن المعطوف عليه؛ فأنتَ لا تقول : عندي قلمٌ وقلمٌ ، ولكنْ تقول: عندي ورقةٌ وقلمٌ؛ وهذا يعني أنّ السَّكَر ــ أي: الخمرَ ــ ليستْ رزقاً حَسَناً.

وقد تقول: ومَن يمكنُهُ أنْ يفهمَ هذه الإشارةَ لولا هذا الشّرحُ والتّوضيح؟!

فأجيبُك بالقول: كان العربيُّ ــ وقتَ نزول القرآن الكريم ــ يفهم هذه الإشاراتِ بسهولةٍ تامّة؛ لأنّ لغتَهُ لغةُ طَبْعٍ وسجيّة، أمّا نحن ــ أنا وأنت ــ فلغتُنا لغةُ صناعةٍ وتعلُّم؛ ولهذا لا نفهم هذه الإشارةَ وأمثالَها إلا بالتّوضيح!

المرحلة الثانية: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ البقرة: ٢١٩.

في هذه الآية نصَّ القرآنُ على أنّ للخمرِ منافعَ، ولكنّ الإثمَ النّاشئ عنها أكبرُ من هذه المنافع؛ فنلاحظ أنّه وصَفَ الإثمَ بوصفٍ عامٍّ (إِثْمٌ كَبِيرٌ)، في حين تَرَكَ المنافعَ بلا وصْفٍ فقال: (وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ).

يُضاف إلى ذلك: أنّ المنافعَ في الآية الكريمة جاءتْ بين إثمَيْنِ، واحدٍ قبلَها وآخرَ بعدَها؛ فهي محاطةٌ بالإثم من جميع جوانبها!

المرحلة الثالثة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣.

في هذه المرحلة جاء النّصُّ بالنّهْي عن شُرْب الخمر وقتَ الصّلاة فقط، في حين سَكَتَ عن شُرْبِها في غير ذلك من الأوقات.

المرحلة الرابعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ المائدة: ٩٠ - ٩١.

وهذه هي مرحلة الحَسْم؛ إذْ جاء النّصُّ بتحريم الخمر بصيغةٍ من أقوى صِيَغِ التّحريم في القرآن الكريم، وهي **الأمر بالاجتناب**.

في هذا المثال اتّضحتْ لنا أهميّة التّدبُّر الموضوعيّ؛ فقد تكوّنتْ لدينا صورةٌ كاملة عن تحريم الخمر في القرآن الكريم، وكذلك اتّضحتْ لنا أهميّةُ ترتيب النّصوص القرآنيّة ذاتِ

الموضوع المتّصل حسب النّزول، هذا التّرتيبُ الذي رسم لنا أسلوبَ التّدرُّج القرآنيِّ في تحريم الخمر، بكلِّ ما فيه من دروسٍ تربويّةٍ ودعويّةٍ، بل فقهيّةٍ أيضاً!

وتظهر أهميّة التّدبُّر الموضوعيِّ أيضاً في قصص القرآن الكريم؛ فإذا جمعتَ ــ مثلاً ــ قصّةَ نبيِّ الله موسى عليه السّلام؛ ستتكوّن عندَك صورةٌ كاملة عن دعوةِ هذا الرّسول الكريم مع قومِهِ بني إسرائيل، ويبقى عليك ــ مستعيناً بكتب التّفسير وعلم البيان ــ أنْ تتدبّرَ الفروقَ الموجودة في الآياتِ القرآنية التي تناولتْ هذه القصّة.

تدريب

- مرَّ تحريمُ الرِّبا في الإسلام ــ كما مرَّ بنا في تحريم الخمر ــ بمراحلَ أربع، وكان نزولُ الآياتِ الّتي تناولتْ الموضوع على النّحو التّالي: (آيةٌ في سورة الرُّوم، آيةٌ في سورة النِّساء، آيةٌ في سورة آل عمران، وآيةٌ في سورة البقرة).

جِدْ هذه الآياتِ، ثمّ قمْ بترتيبِها حسبَ التّرتيب المذكور أعلاه، ثمّ تدبَّرْها؛ لترى ــ بنفسِكَ ــ سُنّةَ التّدرُّج القرآنيّة في الدّعوة والتّربية!

ثامناً: التّدبُّر الحاسوبيّ!

إنّ التّقدُّمَ التّقنيّ هو سِمَةُ العصر الحديث؛ فالرِّحلةُ الّتي كانت تستغرق أيّاماً وأسابيعَ طويلةً؛ صارتْ لا تأخذ مِن وقتِ المسافر سوى بضعِ ساعات، والمجلّدات الضّخمة التي كانت تحتاج البيوتَ الكبيرةَ لِحِفْظها؛ صارتْ لا تأخذُ سوى حجمٍ صغيرٍ ضمنَ رُقاقةٍ لا يتعدّى طولُها بضعةَ ملّيمترات!

ولكنْ يبقى الحاسوبُ هو أبرزَ ما صنعهُ الإنسان في العقود الأخيرة، فَلِمَ لا نستخدمُهُ في تدبُّر القرآن الكريم؟!... إنّ ذلك ممكنٌ بطرقٍ عدّة:

منها: **توفيرُ المصادر** التي لا غنى عنها لمتدبِّر القرآن الكريم ــ مثل كتب التّفسير، وكتب اللّغة، وغيرها ــ بضغطة زرّ، في حين أنّه ربّما يصعب على المسلم توفيرُها من مصدرٍ آخر، إمّا بسببِ قلّةِ المال، وإمّا بسبب عدم توفُّرِ المصدر نفسِه في أماكن البيع.

ومنها: **برامج الكتابة** التي تُمكِّن المتدبِّرَ من كتابة الآيات الكريمة على الحاسوب، كبرنامج الوورد office word، أو البرامج التي تسمح بتحميل المصحف كاملاً في برنامج الوورد نفسه؛ وبالتالي يمكن استعمالُها في عمليّة التّرقيم ــ مثلاً ــ التي مرّت بنا في الصّفحات السّابقة.

ومنها: **برامج البحث** في القرآن الكريم، والتي لها دورٌ عظيمٌ في عمليّة التّدبُّر؛ إذْ إنّها تُمَكِّنُ المتدبِّرَ من البحث عن الآيات التي تناولتْ موضوعاً محدّداً (كما مرّ معنا في آيات تحريم الخمر)، وكذلك البحثُ عن الآيات الّتي تتشابهُ في كلماتها ولكنّها تختلف في كلمةٍ واحدةٍ أو أكثرَ أو أقلَّ.[188]

---

[188] كأنْ يكونَ حرفاً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ لقمان: ١٧ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ الشورى: ٤٣.

ومن أمثلة البرامج الحاسوبيّة التي تُعينُ المتدبِّرَ كثيراً: **برنامج الفرقان**[189]، وهذه هي واجهة البرنامج.

والآن، لِنأخذْ مثالاً تطبيقيّاً على كيفيّة استخدام برنامج (الباحث في القرآن الكريم) في عمليّة التّدبُّر:

حين تقرأ قولَه تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

[189] خصصتُ هذا البرنامج بالذكر لأنّه متوفِّرٌ مجاناً في الانترنت، وأستخدمه شخصيّاً، ولكنّ لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هناك برامجَ كثيرة غيره تؤدّي الغرض نفسه، ولك الحريّة في الاختيار بينها.

آل عمران: ١١٧، لا بدّ أنّك تساءلتَ عن سبب حذْفِ كلمة (**كانوا**) من قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، في حين أنّها ذُكرتْ في مواضعَ أخرى من القرآن الكريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؟!

للإجابة عن هذا السّؤال نستيعن ببرنامج الفرقان؛ فنجمعُ كلَّ الآياتِ التي احتوتْ على عبارة ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وبعدَ ذلك نحاول البحث عن سبب حذف كلمة (**كانوا**) من آية آل عمران.

والآن، نقوم بكتابة (**أنفسهم يظلمون**) في حقل (بحث نصّيّ) في البرنامج، ثمّ ننقرُ على زرِّ (بحث)؛ فتكون النتيجة بالشّكل التّالي:

فاتّضح لنا أنّ عدد الآيات الّتي احتوتْ على عبارة (**أنفسهم يظلمون**) هو (9 آيات).

وفي الخطوة التّالية، نقوم بجمع هذه الآياتِ التِّسْعِ في مكانٍ واحد، ويمكننا ذلك ببساطةٍ شديدة؛ وذلك بأنْ ننقرَ نقرةً مزدوجة على الآية المختارة ليتمَّ نسْخُها كما يخبرنا البرنامجُ نفسُهُ (الكتابة باللّون الأحمر في أسفلُ الصّورة السّابقة)، ثمّ نلصقَها في صفحةٍ من برنامج الوورد؛ فتكون النّتيجة بالشّكل التّالي:

أوّلاً: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ البقرة: ٥٧.

ثانياً: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ آل عمران: ١١٧.

ثالثاً: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ الأعراف: ١٦٠.

رابعاً: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ التوبة: ٧٠.

خامساً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ يونس: ٤٤.

سادساً: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ النحل: ٣٣.

سابعاً: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ النحل: ١١٨.

ثامناً: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ العنكبوت: ٤٠.

تاسعاً: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ الروم: ٩.

فاكتشفنا الآن أنّ هناك آيةً أخرى حُذفتْ منها كلمة (**كانوا**)، وهي آية سورة يونس، في حين أنّ الكلمة ذُكرتْ في الآياتِ السّبع الأخرى. فما هو السِّرُّ في ذلك؟!

الجواب:

لو دَقَّقْتَ النّظَرَ في الآيات السَّبْع الّتي ذُكرت فيها عبارة (كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)؛ فستجدُ أنّها ــ كلَّها ــ تتكلّم عن أقوامٍ حقيقيِّينَ كانوا موجودين في الزَّمن الماضي؛ فمجيء كلمة (**كانوا**) في هذه الحال أمرٌ لا بدّ منه؛ للدِّلالة على أنّ زمنَ الحَدَث الذي تناولتْهُ الآياتُ هو الزّمنُ الماضي.

أمّا آيةُ آلِ عمران ــ و التي هي مَدارُ البحث ــ فإنّها لا تتكلّم عن أقوامٍ حقيقيِّين كانوا موجودين في الزَّمن الماضي، وإنّما هي مِن باب ضَرْبِ المَثَل، (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ

ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٍ)، والمَثَلُ حين يُضرب لا يُراد به زمنٌ محدّد، وإنّما هو مناسبٌ للحاضر والمستقبل؛ فناسبَ ذلك أنْ يُتركَ الفعلُ (**يُظلمون**) على حالِهِ، دالاً على الزَّمن المضارع، و لم تأتِ كلمة (**كانوا**) التي تُحوِّل زمنَ الآية إلى الماضي.

وأمّا الآيةُ في سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾، فإنّها جاءتْ لِتُقرِّرَ حقيقةً واضحة، وهي أنّ الله تعالى لا يظلم النّاس شيئاً ـــ ولو كان مثقالَ ذرّةٍ ـــ، ولكنّ الظّلمَ إنّما يقع على النّاس من جهةِ أنفسِهم هم؛ ولهذا لم يأتِ بالفعل (**كانوا**)؛ لأنّ هذه الحقيقةَ ثابتةٌ في الزّمن الماضي والحاضر والمستقبل، ولا تختصّ بالزّمن الماضي فحسب؛ فناسب أنْ يأتيَ زمنُ الكلام بالمضارع الدّالِّ على الحال والاستقبال.

والله تعالى أعلم.

ما أجملَ لغةَ القرآن الكريم! وما أفصحَها! وما أعذبَها!

وما ألذَّ العيشَ معها وتَذَوُّقَها!

أشهد أنّ هذا الكلامَ كلامُ الله سبحانه وتعالى.

تدريب

- امتنَّ الله تعالى على عبادِهِ في القرآن الكريم بأنّهم إنْ عَدُّوا نِعْمَتَهُ عليهم فإنّهم لنْ يُحصوها، وذلك في آيتيْنِ كريمتيْن، في سورتيْنِ منفصلتيْنِ، اتّحدَ صَدْراهُما، واختلف خِتامُهما. جِدْ هاتيْنِ الآيتيْنِ باستخدام برنامج (الباحثِ في القرآن الكريم)، ثمّ تدبّرْ الاختلافَ في ختامَيْهِما، واكتشفْ كيف أنّ أحدَهما مقابلٌ للآخر بشكل عجيب!
- وَرَدَ قولُهُ تعالى: (يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ) ثلاثَ مرّاتٍ في القرآن الكريم، و وَرَدَ قولُهُ تعالى : (يَغۡفِرۡ لَكُم ذُنُوبِكُمۡ) ثلاثَ مرّاتٍ أيضاً. هل يمكنك ــ مستعيناً ببرنامج الباحث ــ أنْ تتدبّرَ سببَ مجيء كلٍّ منهما في مكانها دون الأخرى؟!

تلميح: عبارة (يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ) تعني: (يغفرْ لكم بعضَ ذنوبِكم)، في حين أنّ عبارة (يَغۡفِرۡ لَكُم ذُنُوبِكُمۡ) تعني: (يغفرْ لكم جميعَ ذنوبِكم).

تاسعاً : تدبَّرْ على الوسادة!

ومن الوسائل التي يمكنك استعمالها في نهاية يومِك: التدبّرُ قبلَ النّوم مباشرةً، حينَ تضعُ رأسَك على الوسادة! فحين يأتي موعدُ النّوم وتخلدُ إلى فراشِك، لِيكُنْ آخرَ ما يجول في بالِك: تدبُّرُ آياتٍ من القرآن الكريم.

إنّ الأفكارَ والخواطرَ التي تجولُ في ذهنك لَهِيَ شيءٌ خطيرٌ حقّاً!؛ لذلك لا بدّ أنْ تهتمَّ بها وتُصلحَ مِن شأنها؛ "فأنفعُ الدّواءِ أنْ تَشْغَلَ نفسَك بالفِكْرِ فيما يَعنيك دونَ ما لا يَعنيك؛ فالفِكْرُ فيما لا يَعني بابُ كلِّ شرٍّ، ومَن فَكَّرَ فيما لا يَعنيه فاتَهُ ما يَعنيه، واشتغل عن أنفعِ الأشياء بما لا منفعةَ له فيه.

فالفِكْرُ والخواطر والإرادة والهِمّة أحقُّ شيءٍ بإصلاحِهِ مِن نَفْسِك؛ فإنّ هذه خاصَّتُكَ وحقيقتُكَ التي تبتعد بها أو تَقْرُبُ مِن إلَهِكَ ومعبودك الذي لا سعادةَ لك إلا في قُرْبِهِ ورِضاهُ عنك، وكلُّ الشَّقاء في بُعْدِك عنه وسُخْطِهِ عليك.

ومَنْ كان في خواطرِهِ ومجالاتِ فِكْرِهِ دنيئاً خسيساً لم يكنْ في سائرِ أمرِهِ إلاّ كذلك.

وإيّاك أنْ تُمَكِّنَ الشّيطانَ مِن بيتِ أفكارك وإرادتِك؛ فإنّه يُفسدُها عليك فساداً يَصعبُ تدارُكُهُ، ويُلقي إليك أنواعَ الوساوسِ والأفكار المُضرّة، ويَحُولُ بينك وبين الفِكْرِ فيما ينفعك، وأنت الذي أعَنْتَهُ على نفسك بتمكينِهِ من قلبك وخواطرك فَمَلَكَها عليك؛ فَمِثَالُكَ معه مثالُ صاحبِ رحىً يطحن فيها جيِّدَ الحبوب، فأتاهُ شخصٌ معه حِمْلُ ترابٍ وبَعْرٍ وفحمٍ وغُثاءٍ لِيَطحنَهُ في طاحونِهِ، فإنْ طرَدَهُ و لم يُمَكِّنْهُ مِن إلقاءِ ما معه في الطّاحون: استمرّ على طَحْنِ ما يَنفعُهُ، وإنْ مَكَّنَهُ مِن إلقاءِ ذلك في الطّاحون: أفسَدَ ما فيها من الحبِّ، وخَرَجَ الطّحينُ كُلُّهُ فاسداً".[190]

وهذا الكلامُ إذا كان ينطبق على تفكيرِ الإنسان بشكلٍ عامٍّ وفي أيِّ وقتٍ مِن أوقاتِ اليوم؛ فإنّه أشدّ انطباقاً على تفكيرِهِ وخواطرِهِ قبلَ النّوم مباشرةً؛ فقد أكَّدَ علماءُ النّفْس أنّ العقْلَ

[190] الفوائد، ص255 – 256.

اللاّواعي للإنسانِ يبني على آخرِ فكرة يُفكِّرُ فيها قبلَ نومِهِ، و يظلّ ــ أي: العقلَ اللاّواعي ــ يعمل عليها ويبني عليها أفكاراً جديدة طوالَ مدّة النّوم.[191]

"ورأسُ مالِ الأمرِ وعمودُهُ في ذلك إنّما هو: دوامُ التّفكُّرِ وتدبُّرُ آياتِ القرآن، بحيثُ يستولي على الفِكْر، ويَشْغَلُ القلبَ، فإذا صارتْ معاني القرآن مكانَ الخواطرِ مِن قلبِهِ وهي الغالبةُ عليه، بحيثُ يصيرُ إليها مَفْزَعُهُ ومَلْجَؤُهُ؛ تمكّنَ حينئذٍ الإيمانُ مِن قلبه، وجلس على كرسيِّهِ، وصار له التّصرُّفُ، وصار هو الآمِرُ المُطاعُ أمْرُهُ؛ فحينئذٍ يستقيمُ له سَيْرُهُ، ويتّضح له الطّريقُ، وتراهُ ساكناً وهو يباري الرِّيحَ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ النمل: ٨٨ ".[192]

وقد كان للسّلف الصّالح رحمهم الله تعالى أحوالٌ مختلفة إذا أوَوْا إلى فُرُشِهِم: فمنهم مَن يحاسب نفسَهُ على عملِ يومِهِ، ومنهم مَن يتفكّر في الموت وما بعدَهُ، ومنهم مَن يراجع وِرْدَهُ القرآنيّ؛ فيمكنك أنت أنْ تراجعَ وِرْدَ التّدبُّر الخاصِّ بك؛ فَتُعيدَ في ذهنِكَ التّفكُّرَ في وِرْدِكَ الذي سبق أنْ تدبّرتَهُ في وقتٍ سابقٍ من يومِك، وفي ذلك فوائدُ عدّة:

منها: أنّ إعادةَ تدبُّرِ ما تدبّرتَهَ سابقاً من القرآن الكريم يمنحُك **معانيَ جديدةً وخواطرَ متعدِّدة**، وكتابُ الله لا تنقضي عجائبُهُ.

ومنها: أنّك تنامُ على **عبادةٍ من أجَلِّ العبادات**، وطاعةٍ من أعظمِ الطّاعات، وهي تدبُّرُ القرآن الكريم، فاحتسبْ نومَك هذا عندَ الله تعالى؛ فأنت نائمٌ: وحسناتُك في ازديادٍ، بإذن الله تعالى ومَنِّهِ وكَرَمِه.

ومنها: أنّ القرآنَ الكريم حين يكونُ آخرَ ما يجولُ في ذهنِكَ: فلعلَّ الله تعالى يرزقك **رؤيا صالحةً** تنفعك في دِينك ودنياك، أو في تدبُّرِك نفسِه.

ومنها: أنْ يكونَ آخرَ عَهْدِك باليقظة: ذِكْرُ الله تعالى وكلامُهُ، كما يكون أوّلَ عَهْدِك باليقظة: ذِكْرُ الله تعالى وصلاةُ الفجر.

---

[191] من كلام د.إبراهيم الفقي رحمه الله تعالى في إحدى محاضراته.
[192] الرّسالة التّبوكيّة/ ابن القيّم الجوزيّة، ص70.

ومَن كانتْ هذه بدايةَ يومِهِ ونهايتَهُ؛ فعسى أنْ يَغفرَ اللهُ تعالى له ـــ برحمتِهِ وكرمِهِ ـــ ما كان منه بينهما.

ومنها: أنّك تختم يومَك بتدبُّرِ القرآنِ الكريم، فإنْ كَتَبَ الله تعالى عليك الموتَ في نومِك ذاك؛ **لَقِيتَهُ على عبادةٍ وطاعةٍ** جليلةٍ عظيمة، وبُعثتَ ـــ يومَ القيامة ـــ مُتدبِّراً لكتاب الله تعالى؛ لأنّه "**يُبعثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه**"[193].

وإنْ مَدَّ الله تعالى في عمرك؛ استيقظتَ على ما نمتَ عليه من خير.

[193] حديث صحيح/ صحيح الجامع الصّغير وزيادته، ص1328.

تدريب

- جرِّبْ تدبُّرَ الوسادة اليومَ، وتدبَّرْ وِرْدَك اليوميّ، واختبرْ ما سيحصل معك، وقارنْ بما مضى!

عاشراً: التّدبُّرُ الجماعيّ!

وممّا يعينُ المرءَ على التّدبُّر: أنْ يتّخذَ له أخاً مسلماً ــ أو أكثر ــ ليكونَ جليسَهُ في مجلس التّدبُّر، وشريكَهُ في مائدة القرآن الكريم.

إنّ لِسَماعِ آياتِ القرآنِ من غيرِك أثراً خاصّاً قد لا تجدُهُ حينَ تقرأ الآياتِ الكريمة بنفسك؛ حتّى إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يحبُّ أنْ يسمعَ القرآنَ مِن غيرِه؛ فـ (عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "**إقرأ عليَّ**". قال: قلتُ: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟! قال: "**إنِّي أشتهي أنْ أسمعَهُ مِن غيري**". قال: فقرأتُ النِّساءَ حتّى إذا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ النساء: ٤١، قال لي: "**كُفَّ**"،أو "**أمسكْ**". فرأيتُ عينيْهِ تَذْرِفان).[194]
فأنت تجدُ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ــ وهو الذي تلقّى القرآنَ مِن لدنِ الله تعالى، بواسطةِ جبريلَ عليه السّلام ــ يحبُّ أنْ يسمعَ آياتِ القرآن مِن غيرِه، بل ويشتهي ذلك، فكيف يجب أنْ يكونَ حالُنا نحن: أنا وأنت؟!

"وفي حديثِ ابنِ مسعودٍ هذا فوائد، منها: استحبابُ استماعِ القراءة والإصغاءِ إليها والبكاءِ عندَها وتدبُّرِها، واستحبابُ طَلَبِ القراءةِ من غيرِهِ ليستمعَ له، وهو أبلغُ في التّفهُّم والتّدبُّر من قراءتِهِ بِنَفْسِهِ"[195]؛ "وذلك أنّ المستمعَ أقوى على التّدبُّر، ونَفْسُهُ أخْلَى وأنْشَطُ لذلك مِن القارئ؛ لاشتغالِهِ بالقراءةِ وأحكامِها".[196]

"وهذا الحديثُ عن أشرفِ الخلْقِ صلى الله عليه وسلم يُعطينا الصّورةَ الأكملَ والأمثلَ للتّأثُّر بالقرآن، وهي حالةٌ مِن التّأثُّر تشمل القلبَ والفِكْرَ والجوارحَ، بحيث لا يبقى مجالٌ للنّفسِ أنْ تنشغلَ بشيءٍ آخر، وفي الوقت نفسِهِ يبقى معها التّرابطُ النّفسيُّ حاضراً ولا يخرج بصاحبِها عن المألوف".[197]

---

[194] رواه البخاريّ برقم (5055)، ورواه مسلم برقم (800) بدون قوله "**كفّ**، أو **أمسكْ**".
[195] المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجّاج/ الإمام النّوويّ، ص537.
[196] فتح الباري بشرح صحيح البخاري/ ابن حجر العسقلاني، ص2228.
[197] هكذا عاشوا مع القرآن، ص55.

تدريب

- إبحثْ في إخوتِك وأصدقائِك عمّنْ يكون لك شريكاً في قراءةٍ تدبُّريّةٍ للقرآن الكريم، على أنْ يتمَّ الاتِّفاق على موعدٍ ثابتٍ لهذه القراءة، حسبَ ما يلائم المشاركينَ وظروفَهَم.
- إذا كنتَ متزوِّجاً: فَلِمَ لا يكون لك جلسةٌ تدبُّريّةٌ مع زوجك؟!
- إذا كنتَ والِداً: فَلِمَ لا يكون لك جلسةٌ تدبُّريّةٌ مع أولادِك؟!

همسةٌ أخيرة

أحْكِمْ صَيْدَك التّدبُّريَّ!

بعدَ أنْ تبدأَ مشوارَك التّدبُّريَّ ــ مُتَّبِعاً وسيلةً أو أكثرَ من وسائل التّدبُّر التي مرَّ ذِكْرُها ــ سيتكوّن عندَك حصادٌ متراكمٌ من التّدبُّر، وهذا الحصادُ قابلٌ للضّياع ما لم يُقَيَّدْ بالكتابة:

العِلْمُ صَيدٌ والكِتابةُ قَيْــدُهُ ... قَيِّدْ صُيُودَكَ بالحِبالِ الواثِقَة

فَمِن الحَماقَةِ أَنْ تَصيدَ غَزالَةً ... وتَتْرُكَها بَينَ الخَلائقِ طالِقَة[198]

فلا غِنى للمتدبِّر عن تدوينِ خواطرِهِ التّدبُّريّة؛ فإنّ في تدوينها توثيقاً لها وتأصيلاً، يمكن له الرّجوعُ إليه في المستقبل؛ فيكون سهلاً عليه الاستمرارُ في تدبُّرِ النّصِّ من حيثُ انتهى إليه تدبُّرُهُ، لا أنْ يبتدأَ من مرحلة الصِّفر؛ وهذا هو السّببُ في أنّي لم أُفْرِدْ عمليّةَ التّدوين في بحثٍ مستقلّ؛ لأنّها تُعَدّ عامِلاً مُكَمِّلاً لوسائل التّدبُّر.

ومَن يدري؟! فلعلّ خواطرَك التّدبُّريّة يمكن لها أنْ تُصبحَ ــ فيما بعدُ ــ كتاباً يُطبعُ ويُنشرُ ويُقرأ؛ فتكونَ صدقةً جاريةً في ميزانِ حسناتِك، في حياتِك وبعدَها، وهي ــ مِن بَعْدُ ــ نبراسٌ لَمَنْ يأتي بعدَك في طريق تدبُّرِ القرآن الكريم، لك أجْرُها وأجْرُ مَنْ يعمل بها إلى يوم القيامة!

ويمكن أنْ تتمَّ عمليّة التّدوين بطريقتيْنِ:

الأولى: أنْ تُخَصِّصَ **مفكِّرة** لهذا الغرض: تُدَوِّنُ فيها خواطرَك التّدبُّريّة، شيئاً فشيئاً.

الثانية: أنْ تستخدمَ الحاسوب، وبالتّحديد **برنامج الكتابة (الأوفيس)**.

---

[198] هذانِ البيتانِ منسوبانِ إلى الإمام الشّافعي رحمه الله تعالى، إلا أني لم أجدْهما في ديوانِهِ المطبوع المسمّى بـ **(الجوهر النّفيس في شِعر الإمام محمّد بن إدريس)!**

تدريب

- أنشئ ملفّاً folder خاصّاً بالتّدبُّر في حاسوبك، ثمّ أنشئ (**114**) ملفّاً من ملفّات برنامج الأوفيس ـــ على عدد سور القرآن الكريم ـــ، وبعد ذلك: دوِّنْ خواطرَك حسبَ السُّورة التي توجد فيها، كلّما لاحَ لك خاطرٌ تدبُّريّ، ولو في غيرِ وِرْدِ التّدبُّرِ الخاصِّ بك؛ لأنّك حين تبدأ في تدبُّر القرآن الكريم، وتُلزمُ نفسَكَ بِورْدٍ خاصٍّ لذلك؛ فستجدُ نفسَك تتدبّرُهُ ولو في غيرِ موعدِ الوِرْد!

أو: يمكنك فِعْلُ ما ذُكِرَ مستخدماً مفكِّرةً؛ إنْ لم يمكنْك استخدامُ الحاسوب.

خاتمة

أخي القارئ الكريم: لا يسعني إلاّ أنْ أشكرَك؛ لِصَبْرِك معي، و وقتِكَ الّذي منحتني إيّاهُ في قراءةِ هذا الكتاب، فإنْ استفدتَ منه شيئاً فذاك ما أردتُ، والفضلُ لله تعالى وحدَهُ؛ فلا تبخلْ على أخيكَ بدعوةٍ في ظهر الغيب.

وإنْ تكُنْ الأخرى، فالتّقصير منّي، والعفوُ منك، وأطمع ــ مع ذلك ــ منك بدعوةٍ لمغفرةِ الزّلَل.

الآن، وقد وصلتْ رِحلتنا إلى نهايَتِها، أتمنّى أنْ تبدأَ بعدَها رحلتُكَ أنت.. رحلتُك مع القرآنِ الكريم، والّتي أرجو أنْ أسمعَ عنها قريباً!

هشام المشهداني

المصادر:

1. **إحياء علوم الدِّين**: الإمام أبو حامدٍ محمّد بن محمّد الغزاليّ، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1430هـ - 2009م.
2. **إرشاد النُّقّاد إلى تيسير الاجتهاد**: العلاّمة محمّد بن إسماعيل الأمير الصّنعانيّ، مطبوعٌ ضمن مجموعة الرّسائل المنيريّة، تحقيق: محمّد منير الدِّمشقيّ، المطبعة المنيريّة، ط 1343هـ.
3. **أخلاق أهل القرآن**: الإمام المحدِّث أبو بكرٍ محمّد بن الحسين الآجريّ، تحقيق: الشّيخ محمّد عمرو بن عبد اللّطيف، دارالكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، 1424هـ - 2003م.
4. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: الشيخ العلاّمة محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكنيّ الشنقيطيّ، دار عالم الفوائد.
5. **إغاثة اللّهفان في مصايد الشّيطان**: الإمام أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيّوب بن قيِّم الجوزيّة، دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، الطّبعة الأولى، 1432 هـ.
6. **أفلا يتدبّرون القرآن؟**: أسماء بنت راشد الرّويشد، دار الوطن.
7. **البرهان في علوم القرآن**: الإمام بدر الدِّين محمّد بن عبد الله الزّركشيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التّراث، القاهرة.
8. **التِّبيان في آداب حَمَلة القرآن**: أبو زكريّا يحيى بن شرف الدِّين النّووي، تحقيق: بشير محمّد عيون، مكتبة المؤيَّد ومكتبة دار البيان، الطّبعة الأولى، 1413هـ - 1991م.
9. **تحفة الطّالب والجليس في كشف شُبَهِ داود بن جرجيس**: الشّيخ عبد اللّطيف بن عبد الرّحمن بن حسن آل الشّيخ، تحقيق: عبد السّلام بن برجس، دار العاصمة، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الثّانية، 1410هـ.
10. **التّحفة العراقيّة في الأعمال القلبيّة**: شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة، تحقيق: د. يحيى بن محمّد الهنيدي، مكتبة الرُّشْد، الرِّياض، الطّبعة الأولى، 1421هـ - 2000م.

11. **تدبّر القرآن:** سلمان بن عمر السّنيدي، مجلّة البيان، الرِّياض، الطّبعة الثّانية، 1423هـ - 2002م.

12. **التّدبُّر، حقيقتُهُ، وعلاقتُهُ بمصطلحات التّأويل والاستنباط والفهم والتّفسير:** أ.د. عبد الله عبد الغنيِّ سرحان، مركز التّدبُّر للاستشارات التّربويّة والتّعليميّة، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1430هـ - 2009م.

13. **التّرقيم وعلاماته في اللّغة العربيّة:** أحمد زكي، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، جمهوريّة مصر العربيّة.

14. **تعليم تدبُّر القرآن الكريم، أساليب عمليّة ومراحل منهجيّة:** د. هاشم بن علي الأهدل، مركز الدِّراسات والمعلومات القرآنيّة بمعهد الإمام الشّاطبي، المملكة العربيّة السّعوديّة.

15. **تفسير القرآن العظيم:** الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدِّمشقيّ الشّافعيّ، دارالكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

16. **التّفسير القيِّم لابن القيِّم:** الإمام ابن القيِّم الجوزيّة، تحقيق: محمّد حامد الفقي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

17. **تفسير الكشّاف عن حقائق التّنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل:** أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشريّ الخوارزميّ، دارالمعرفة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، 1430هـ - 2009م.

18. **التّفسير الموضوعيّ لسور القرآن الكريم:** نخبة من علماء التّفسير وعلوم القرآن، كليّة الدِّراسات العليا والبحث العلميّ، جامعة الشّارقة، الشّارقة، الإمارات العربيّة المتّحدة، الطّبعة الأولى، 1431هـ - 2010م.

19. **تلبيس إبليس:** أبو الفرج ابن الجوزيِّ البغداديّ، دار ابن خلدون، الإسكندريّة.

20. **الجامع لأحكام القرآن:** أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ، دار عالم الكتب، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الثّانية.

21. **الّذيل على طبقات الحنابلة**: الإمام الحافظ عبد الرّحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: د. عبد الرّحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الأولى، 1425هـ - 2005م.

22. **الرِّسالة التّبوكيّة**: ابن قيِّم الجوزيّة، تحقيق: محمّد عزير شمس، دار عالم الفوائد للنّشر والتّوزيع.

23. **زاد المعاد في هَدْيِ خير العباد**: ابن قيِّم الجوزيّة، تحقيق: شعيب و عبد القادر الأرنؤوط، مؤسّسة الرِّسالة، بيروت، لبنان، الطّبعة السّابعة والعشرون، 1415هـ - 1995م.

24. **سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، شخصيّته وعصره**: د. علي محمّد الصّلابيّ، دار ابن الجوزيِّ، القاهرة، جمهوريّة مصر العربيّة، الطّبعة الأولى، 1428هـ - 2007م.

25. **شرح مقدّمة التّفسير لشيخ الإسلام ابن تيميّة**: الشّيخ محمّد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة.

26. **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**: محمّد ناصر الدِّين الألبانيّ، المكتب الإسلاميّ في بيروت و دمشق، الطّبعة الثّالثة، 1408هـ - 1988م.

27. **علم أصول الفقه**: عبد الوهاب خلاّف، مكتبة الدّعوة الإسلامية/ شباب الأزهر، الطّبعة الثّامنة.

28. **عون المعبود على سنن أبي داود**: العلاّمة أبو عبد الرّحمن شرف الحقِّ الشّهير بمحمّد أشرف بن أمير العظيم آبادي، بيت الأفكار الدّوليّة، عمّان ـــ الرِّياض.

29. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: الإمام الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمّد بن محمّد بن علي الشّهير بابن حجر العسقلانيّ، بيت الأفكار الدّوليّة، عمّان ـــ الرِّياض.

30. **الفروق اللّغويّة**: الإمام الأديب اللّغويّ أبو هلال العسكريّ، تحقيق: محمّد إبراهيم سالم، دار العلم والثّقافة، القاهرة، جمهوريّة مصر العربيّة.

31. **فنّ التّدبُّر في القرآن الكريم**: عصام بن صالح العويِّد، مركز التّدبُّر للاستشارات التّربويّة والتّعليميّة، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الثّالثة، 1431هـ - 2010م.

32. **الفوائد:** ابن قيِّم الجوزيّة، تحقيق: محمّد عزير شمس، دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، الطّبعة الأولى، 1429 هـ.

33. **قاعدة في فضائل القرآن:** شيخ الإسلام ابن تيميّة، تحقيق: د. سليمان بن صالح القرعاو ، 1414هـ.

34. **اقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم:** شيخ الإسلام ابن تيميّة، تحقيق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرُّشْد، الرِّياض.

35. **لسان العرب:** الإمام العلاّمة أبو الفضل جمال الدِّين محمّد بن مكرم بن منظور الإفريقيّ المصريّ، دار صادر، بيروت، لبنان.

36. **ليدبّروا آياته، حصاد عامٍ مِن التّدبُّر، المجموعة الأولى:** مركز التّدبُّر للاستشارات التّربويّة والتّعليميّة، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الثّالثة، 1433هـ - 2012م.

37. **ليدبّروا آياته، حصاد عامٍ مِن التّدبُّر، المجموعة الثانية:** مركز التّدبُّرٍ للاستشارات التّربويّة والتّعليميّة، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الأولى، 1432هـ - 2011م.

38. **مجلة البحوث والدِّراسات القرآنيّة:** العدد التّاسع، السّنة الخامسة والستّون، ترتيب سُوَرِ القرآن الكريم، د. طه عابدين طه.

39. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيميّة:** مجمّد الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، المدينة المنوّرة، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1425هـ - 2004م.

40. **مختار الصِّحاح:** محمّد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرّازيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان.

41. **مدارج السّالكين بين منازل "إيّاك نعبد وإيّاك نستعين":** ابن قيِّم الجوزيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى.

42. **المدخل إلى الدراسات القرآنيّة:** الإمام أبو الحسن علي الحسنيّ النّدويّ، دار ابن كثير، دمشق ـــ بيروت، الطّبعة الثّانية، 1431هـ - 2010م.

43. **المراحل الثّمان لطالب فهم القرآن:** عصام بن صالح العويِّد، مركز التّدبُّر للاستشارات التّربويّة والتّعليميّة، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الثّانية، 1431هـ - 2010م.

44. **معارج التّفكّر ودقائق التّدبُّر:** عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميدانيّ، دار القلم، دمشق، الطّبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.

45. **معجم التّعريفات:** العلاّمة علي بن محمّد السيِّد الشّريف الجُرجانيّ، تحقيق: محمّد صِدِّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة.

46. **مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة:** ابن قيِّم الجوزيّة، تحقيق: عبد الرّحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، الطّبعة الأولى، 1432هـ.

47. **المفردات في غريب القرآن:** أبو القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالرّاغب الأصفهانيّ، مكتبة نزار مصطفى الباز.

48. **مفهوم التدبّر: تحريرٌ وتأصيل، أوراق عمل الملتقى العلميِّ الأوّل لتدبُّر القرآن الكريم:** مركز التّدبُّرٍ للاستشارات التّربويّة والتّعليميّة، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1430هـ - 2009م.

49. **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجّاج، شرح النّوويِّ على مسلم:** الإمام الحافظ محيي الدِّين أبو زكريّا يحي بن شرف بن مُرِّي النّوويّ، بيت الأفكار الدّوليّة.

50. **موسوعة ابن أبي الدّنيا:** تحقيق: فاضل بن خلف الحُمّادة الرّقّي، دار أطلس الخضراء.

51. **هكذا عاشوا مع القرآن، قصص ومواقف:** د. أسماء بنت راشد الرّويشد، مركز التّدبُّرٍ للاستشارات التّربويّة والتّعليميّة، الرِّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الأولى، 1432هـ - 2011م.

52. **الوجيز في أصول الفقه:** د. عبد الكريم زيدان، مؤسّسة قرطبة، الطّبعة السّادسة، 1396هـ / 1976م.

تمّ بحمد الله وتوفيقه